حسن محسّب

الطهطاوى

الناشر
مكتبة غريب
٢٠١ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

الجزء الأول

الأفق الدامى

(١)

« يا مصر .. انظرى إلى اولادك وهم حولك مشتتون.. متباعدون.. مشردون.. واستوطنك أجلاف الأتراك والفرنسيين والأنجليز.. وقطاع الطرق.. وأرازل الأرناؤود.. وصاروا يقبضون خراجك.. ويحاربون أولادك.. ويقاتلون أبطالك.. ويقاومون فرسانك.. ويهدمون دورك.. ويسكنون قصورك.. ويغدرون بولدانك وحورك.. ويطمسون بهجتك ونورك : قضى الأمر... »

وضع الجبرتى ريشته بجوار قراطيس الورق.. وهو يكرر :

- «قضى الأمر.. قضى الأمر.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. »

شرخة الحزن.. عصاه الدمع.. لكن صيحة هيجاء صدمت دماغه.. هزته.. انتتر واقفا.. هرول إلى نافذته.. قال :

- « الله أكبر يا أولاد الناس.. يا شعب مصر المحروسة.. عرايا من الدروع والسلاح.. نحلكم الجوع والمرض والفقر ونهبوا أموالكم وأقواتكم.. لكنكم تحمون المحروسة بأسنانكم وأذرعتكم.. »

انفجرت دانات القنبر - القنابل - أشعلت النيران فى البيوت والدكاكين.. وتوالت الرصاصات.. ولمعت السيوف.. هاجت الخيول.. ولولت النسوة.. زأر الرجال :

- شرع الله بيننا وبين الظلم !..

وصاح الأولاد :

- « يا رب يا متجلى اهلك المماليك والفرنسيس والإنجليز والعثمللى.. »..

كان الفقراء من عامة الناس يبيعون ثيابهم ويستدينون ليشتروا الأسلحة المسروقة من المماليك والفرنسيس والإنجليز والأتراك...

.. شاب أزهرى اسمه محمد الأنصارى.. مع رفاقه.. يتسللون إلى معسكر الفرنسيين فى رملة بولاق ويقتلون بعض الجنود ويستولون على أسلحتهم ويقتحمون مخزنا للأسلحة ويحملون ما يقدرون على حمله من صناديق الأسلحة.. يسرعون عائدين.

(٢)

رفعت رايات البيرق النبوى.. الخضراء وعليها بقع الدم.. وأحرقت النيران بعض جوانبها.. لكنها رفعت عاليا.. هزتها السواعد.. والرياح والدخان.. وزمجرة تصادم السحب فى شتاء أكتوبر القارس.. وهطلت الامطار بغزارة.. لم تتوقف طلقات البنادق والمدافع وصليل السيوف وهياج الجياد وسقوط الرؤوس والأذرع والأيدى والأرجل والأصابع.. وسيول الدماء تمتزج بالطين.. بالمطر.. بالرياح.. بالدخان.. بالحرائق بالغضب بالأذان على أسطح المساجد..

انطلق الاحياء والجرحى وراء السيد عمر مكرم.. والشيخ عبد الله الشرقاوى.. والشيخ حسن الجبرتى.. والسيد أحمد المحروقى.. وغيرهم من مشايخ الأزهر.. وسادة القوم..

وحكى مراكبية مراكب الغلال التى رست فى «رملة بولاق» وعند مصر القديمة، أن نفس البيارق النبوية الخضراء المبقعة بالدم والحريق كانت ترتفع- أيضا- فى قرى وكفور ومدن وجه بحرى وعلى امتداد الصعيد.

توقف عمر مكرم عند باب الأزهر.. التف الناس حوله.. قال :

- اليوم يومكم يا رجال مصر . الإنجليز يضغطون عند إمبابة على جيش الفرنساوية.. والعثمانيون قادمون من شرق البلاد.. وواليهم فى القلعة.. ومماليك مراد بك وإبراهيم بك يزحفون من الصعيد نحو الجيزة الكل يريد القلعة.. يريد حكم البلاد ونهبها..

قال الشيخ الشرقاوى :

- لابد من استمرار الثورة.. لطرد الجميع من ديارنا.. ونختار رجلا صالحا من بيننا يدير شئون البلاد..

قال عمر مكرم :

- ما أكثر الصالحين فى مصر.. ما أعظم رجالاتها.. لكن.. السلاح يا شيخ شرقاوى.. السلاح ؟.. ألا ترى القنابر والدانات والرصاص والبنادق.. والجيوش الأجنبية.. أين جيشنا.. لا جيش لمصر المحروسة.. فكيف ترد الغزاه.. ؟ وكيف نستقل عن الباب العالى قبل أن نجد جيشا مصريا ؟

كان الاتراك.. والمماليك والفرنسيس والانجليز.. يركبون الخيول.. وينصبون المدافع ، يتقاتلون بعنف.. ويطلقون النار.. يهدون البيوت والجوامع « يشعلون الحرائق ويقاتلون عامة الناس الثائرين بالأزقة والحوارى والشوارع.. فى رملة بولاق والأزهر والقلعة والجيزة.. والعباسية.. و ...

جاء «محمد الأنصارى» حاملا جوالا به البنادق والقنابل التى غنمها من معسكر الفرنسيس.. وآثار دماء كثيرة تبلل جبته وقفطانه وعمامته..

تفحص.. عمر مكرم البنادق.. وتأمل الذخائر.. وبعض القنابل..قال:

– متى يا ربى نمتلك مثل هذا وهذا...

ثم صاح : يا ناس.. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..

جاء الشيخ حسن العطار حاملا سلة بها عده آنية فخارية معبأة بالبارود.. وقال :

– يجب أن تنصرف الهمة بعد زوال هذه الغمة ، إلى تعليم الصبيان فى هذه ألامة.. المهم الآن.. هذه قنابل بدائية صنعتها وأرجو من الله أن تكون سليمة سوية.. لتشعل النار فى معسكر الأعادى.. وتخفف الويل عن عامة الأهالى..

اسرع بعض الثوار من عامة الناس.. أخذ كل منهم عبوة فخارية.. وهرول نحو الفرنساوية والمماليك والإنجليز والجراكسة العثمانيين.. و ..

دوت انفجارات.. وطار دخان.. ولمعت سيوف وسالت دماء.. واشتعلت حرائق..

(٣)

ظهر منادى الوالى.. قادما من القلعة.. ودق طبلته.. وأوقف بغلته.. وأعلن :

« .. قوات بحرية إنجليزية بقيادة الأدميرال سيدنى سميث تحاصر القاهرة وتعسكر فى إمبابة . وقوات فرنساوية بقيادة عبد الله مينا تستعد للانسحاب من ديارنا.. وقوات جيش مولانا السلطان العثمانى عند أبواب شرق القاهرة وموانى الإسكندرية... وجاءت قوات الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والمماليك فى الجيزة والصعيد.. ومولانا خسرو باشا فى القلعة قرر أن يدفع عموم الناس فى مصر كل تكاليف عودة قوات فرنساوية إلى بلادها.. ويدفعون كل رواتب عسكر وجنود الباب العالى الموجودة فى مصر لأننا حاربنا ودافعنا عن البلاد.. وحققنا لكم الحرية والاستقلال وهزمنا الفرنساوية.. وتدفع عموم مصريين كل أموال لازمة لهدايا الباب العالى.. »

هرول السيد عمر مكرم إلى القلعة.. بعد انتظار طويل قابل خسرو باشا.. طلب منه إلغاء الغرامة عن الأهالى قال : عامة الناس حاربوا وقتل منهم الكثير وأحرقت بيوتهم وتجارتهم وأعمالهم.. ولا يجوز تغريمهم.

غضب الوالى خسرو باشا.. وأمره : « كل المصريين ادفع تكاليف عودة عسكر فرنساوية إلى بلادهم.. وكل مصريين ادفع كمان رواتب عساكر أتراك ومماليك تبع حضرتنا.. وادفع كل هدايا السلطان والباب العالى.. وادفع كمان ترضية للاسطول الانجليزى..

(٤)

– انتشرت مماليك مراد بك.. كالجراد.. فى الصعيد.. تخرب كل شيء.. وحاصروا طهطا.. وأرمنت وكل النجوع والقرى والمدن.. ونهبوا المحاصيل والمواشى وقالوا :

– كله يدفع كل ما يزيد من اموال وطعام وإلا قتلناكم وهدمنا بيوتكم.. وأحرقنا زرعكم »

وأطاحوا برأس أحد فقراء طهطا وسط ذهول الرجال وهلع وصراخ النسوان والعيال.

قال فلاح طهطاوى : سنين طويلة.. وأنتم تنهبون قوت عيالنا.. وتسرقون بهائمنا.. و ...

ورفع المملوك سيفه وقطع رأس الفلاح..

صرخت زوجة القتيل.. لطمت وجهها.. رآها قائد المماليك تشق صدرها وترتمى على جثة زوجها.. غلبته شهوته ، فدفع جواده.. وشلح ثوب المرأة ، وانحنى ليحملها أمامه على حصانه. و...

بهت الأهالى لحظة.. دهرا. ثم..

دوت فرقعة مباغتة.. خافت الجياد.. هاجت.. سقط المملوك فوق المرأة المكلومة.. وجره الحصان بلجامه بعيدا.. مرمط وجهه فى الطين.. داست قدم صلبة ذات صندل من الجلد فوق دماغه. أخرج مملوك آخر سيفه أراد قتل صاحب القدم الصلبة.. لكنه رمى إناء فخاريا آخر ففرقع نارا ودخانا.. وجرى المماليك مذعورين ، فرفع محمد الأنصارى قدمه عن

دماغ المملوك وأسره ، وساقه أمامه إلى زريبة المواشى وربطه هناك ريثما يفيق من مشوار السفر الطويل ، ويقرر ما يراه مع زوج أخته الشيخ بدوى.. وكبار القوم فى طهطا..

انزاح الغم عن صدورهم.

سأله الشيخ بدوى :

- ما هذا الشىء المخيف ؟..

- هذه قنابر.. أى قنابل بعضها صنعه لنا الشيخ حسن العطار.. وبعضها غنمناه من الفرنساوية.. وهذه اسمها غداره.. أو بندقية.. هل رأيت مثل هذا الهول من قبل يا زوج أختى ؟..

جلس الشيخ بدوى يلتقط أنفاسه اللاهثة.. قال :

- لقد أحضرك الله والروح فى الحلقوم.. لكن خبرنى يا شيخ محمد.. كيف عدت.. وفيما عودتك والمحروسة فى كرب عظيم والمراكب فى النيل نادرة بسبب غارات المماليك ؟

قال الشيخ محمد الأنصارى :

- جئت بزوجتى.. إنها حامل.. وأردنا أن يرى مولودنا النور هنا.. فى طهطا.. وكنا نظنكم فى أمان.. لكن الكرب هو الكرب فى المحروسة وفى طهطا.. و ...

صرخت امرأة.. وصاحت النسوة :

- الداية احضروا المولدة حالا...

ونظر الشيخ بدوى الى الشيخ محمد الانصارى.. فاسرع يقول :

- لا أظن.. إن زوجتى فى شهرها الخامس تقريبا.. لكن هل فعلتها حقا..

قال بدوى : لابد .. السفر طويل وشاق وكرب الزمن و...

دخلت زوجة الانصارى هاتفة :

- اسرع يا شيخ بدوى.. أحضر الداية.. الحاجة فاطمة الانصارية تلد..

وتذكر الشيخ بدوى ما كان يشغله قبل وصول مماليك مراد بك.. و .. قال فى ألم وفرحة وغضب وضيق ورجاء :

- تصور : كنت فى طريقى لإحضار الداية «هاجر».. من دارها.. عندما داهمنا الكرب العظيم.. يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف.. قم يا انصارى لنحضر الداية هاجر.. هيا يا رجل.. ثم توقف.. وتوجه لله :

« أتمناه ولدا.. اللهم لا اعتراض.. ولا تؤاخذنى يا ربى.. فأنت أعلم بما نحن فيه من هم وكرب عظيم.. والبنات فى هذا الزمن الأغبر عرضة للسبى من كلاب المماليك.. وشرار الجراكسة.. »

(٥)

سمع جميع أهالى طهطا توسلات المملوك المربوط فى الزريبة.. تجمعوا.. رأوا المرأة التى أراد اغتصابها ، كانت تقطع جسده قطعة قطعة بمنجل أسنانه ثلماء.. وتغرس أصابعها فى عينيه.. وتجمع دماءه فى إناء فخارى وتسقيها له ، وأصابها هياج شديد فأخذت تنهش لحمه بأظافرها وأسنانها فى توحش ، وهى تقول :

– ذبحتم زوجى.. يتمتم عيالى.. سرقتم بهائمى وغلالى.. أحرقتم دارى.. وتريد أن تعتدى على عرضى.. وتلبسنى ثوب العار لنهاية عمرى.. آه يا كافر.. ياكافر.. و..

فشلوا فى إبعادها عن المملوك.. حتى لفظ أنفاسه فى وسخ الزريبة.. فخرجت المرأة مجنونة تزغرد : « أخذت تارك يا ابو عيالى.. أخذت تار جوزى يا أهل طهطا.. غسلت عارى.. »

(٦)

قال الجبرتى :

– « .. وهرع سكان مصر المحروسة.. فى عموم الديار.. إلى المساجد والجوامع ، نساء ورجالا ، يشكون ويستغيثون من أفعال المماليك وعسكر الأتراك ، ويخبرون أن الظالمين أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهرا ، ولم يتركوهم يأخذون ثيابهم ومتاعهم ، ومنعوا النساء عندهم ، وما خلص منهم الا من تسلق ونط من الحيطان.. وقال الناس :

– « ضاع الأمان.. »

وصاح الأولاد :

– « يارب يا متجلى.. أهلك المماليك والعثمللى »

وكانت الحاجة فاطمة الأنصارية ، تعانى من عسر شديد فى وضع مولودها.. كانت زوجة أخيها محمد تساعدها.. أدفأت بعض الماء على « الكانون» بحزمة حطب وقش ذره.. وضعت بعض الدهون والشحوم والنباتات العطرية.. قرأت ألم نشرح لك صدرك ورفعنا عنك وزرك الذى

انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا.... صرخت الأنصارية : يارب...

وارتفع أذان العصر من سطح مسجد سيدى أبو القاسم..

وقال الشيخ بدوى :

- أسرعى يا ست هاجر.. لو كنت أعرف أنك هاجرت إلى هذا النجع البعيد لبحثت عن داية آخرى فى البلدة..

ضحكت هاجر.. ورفعت ذيل جلبابها الأسود وأبقت قميصها الواصل إلى قرب كعبيها.. وقالت :

- « قطعت نفسى يا شيخ بدوى.. ولو ذهبت لأرمنت بنفسك فلن تجد من هى أحن منى على الحاجة فاطمة.. جهز النقوط الكبير.. أريد جملا يعمل عليه أبو عيالى فى الجرى على المعايش.. »

وتهرول الداية هاجر إلى الدار... وتتصاعد آهات الولادة.. ويذهب الجميع إلى المسجد لصلاة العصر.. و...

وسط ابتهالات ختام الصلاة ، يصلهم صوت زغرودة طويلة.. فرحة..

على باب الدار ، وقفت الداية تزغرد ، وتعلن وصول الوليد... وتسأل الحاج بدوى :

- هل ستعطينى الجمل ؟..

ضحك الرجل وقال : إذا كان المماليك تركوا لنا أى شىء.. خذيه يا هاجر.. المهم طمنينى.. عن صحة الحاجة.. »

قالت هاجر : الحمد لله.. الحاجة والمحروس.. بخير.. ولازم آخد حلاوتى عجل أو كبش سمين »

قالت زوجة الشيخ محمد الأنصارى :

- هل سميتم المولود.. باسم الله ما شاء الله.. ولد زى البدر.. و..

قال الحاج بدوى : الحمد لله.. وكان فضل الله علينا عظيما..

قال الشيخ محمد الانصارى : تسلمه لى من الآن.. لأعلمه لك فى الازهر.. وأحفظه القرآن.. والفقه والسنة وعلم الحكماء واللغة العربية وضرب القنابل والمدفع والسيف وركوب الخيل.. و..

ضحك الحاج بدوى ، وقال : حيلك يا شيخ محمد.. اصبر حتى يكبر الولد و.. لكن هل سيظل الكرب ببر مصر حتى يكبر الولد ويحاربهم.. أم أن الله كاشف عنا هذه الغمة عما قريب ؟..

قال الشيخ محمد : لقد تركت السيد عمر مكرم وشيوخ الأزهر وسادة الحرف وهم يحاولون الوصول إلى حل لكن الوالى بالقلعة ، وعسكره ، لانهاية لمظالمهم وألاعيبهم..

صاحت الداية :- أعطونا اسم المولود أولا.. ثم تناقشوا ما بقى من عمركم.. هه ؟..

فكر الحاج بدوى.. برهة ، وقرأ ما تيسر من القرآن.. ثم قال :

- رفاعة.. رفاعة رافع بدوى رافع الطهطاوى..

ما رأيك يا انصارى ؟..

- بارك الله فيه وجعله ابنا صالحا باراً بوالديه وبأهله وبوطنه.. ورفع به شأن البلاد.. آمين.

زغردت الداية هاجر ، وقالت :

- لن اترك حقى فى « الحلوان » الكبير.. جمل أو ثمن الجمل.. هه.. ماذا قلت يا أبا رفاعه ؟..

وضحك الجميع.. والداية تعلن على باب الدار.. وعند باب المسجد فى نهار يوم من عام ١٢١هـ هجرية « - وقيل فى يوم خروج الفرنسيس من مصر - وهو يوم ١٥/ ١٨٠١/١٠ »

- « رزق فى التو واللحظة.. الحاج بدوى رافع.. بولد ذكر أسماه رفاعه.. فهو رفاعه بن بدوى بن على بن رافع.. ابن سيدى أبو القاسم المحسب المنسب بسلالة سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ، وأمه الحاجة فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلى المنسبة المؤصلة لجدها الانصارى من المدينة المنورة التى أغاثت ونصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيدت دعوته للإسلام ضد الكفار حتى نصره الله.. الحاضر يعلم الغائب.. وان رفاعه الطفل الذكر قد وهبه الله لأبيه وأمه فى التو واللحظة.. رفع الله به شأنهما ، وأعزهما ورعاهما فى شيخوختهما القادمة لا محالة فى قابل الأيام ان شاء الله.. وجعله الله ذخرا لبلدى.. ويرفع من شأنها وينفعها بعلمه وأدبه وجهاده.. آمين.. آمين .. وصلى اللهم على خاتم المرسلين »

هلل جيران الحاج بدوى.. وحملوا الهدايا.. والجوده من الموجود وباركوا للحاج بدوى.. وأعدت الجارات ثيابا قديمة من نسيج الكتان

للمولود.. وطحنت احداهن ما عندها من حلبة ، وشمر ، وينسون وبعض حبوب القمح والذرة والشعير ، وقدمت اخرى رباط عريضا طويلا من نسيج أشرعة المراكب لتلفه الحاجة فاطمة على بطنها لتسندها وتحفظ رشاقتها بعد الوضع ، وقدمت أخرى عدة حزم من النعناع الاخضر ، و..

ضحك الجميع .. وقبلوا أيديهم شاكرين أنعم الله ..

لكن الضحكات ماتت.. انكتمت فى الصدور.. وسط فزع واضطراب شديدين اجتاحا طهطا من جميع الجهات...

جاء ثلاثة من المماليك بجيادهم.. أطلقوا رصاصات طائشة.. قتلوا ثلاثة من الأهالى.. وسرقوا بعض المواشى والجمال.. وعادوا من حيث جاءوا..!

وقال الشيخ محمد الأنصارى : صحيح ان الله يدافع عن الذين آمنوا.. لكن قال : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم..

فأين جيشنا ؟.. اننا بلد بلا جيش.. العثمانيين والمماليك لا يريدون أن يكون للمحروسة جيش.. من أبنائها...

قال الحاج بدوى : قل ذلك للسيد عمر مكرم وبقية الأشراف.. ألا تقابلهم فى المحروسة ؟..

قال الشيخ محمد : أفعل إن شاء الله..

وأخذ يحث الناس ليعودوا إلى دورهم.. وحقولهم.. وأن يعملوا.. وأن يكونوا على حذر.. فشراذم المماليك والاتراك لن يكفوا عن السرقة والقتل والنهب.. وربنا يستر !..

و.. دفنوا الذين قتلهم المماليك.. وضعوا على قبورهم التراب والصبار وجريد النخيل.. وقرأ الفقيه آيات من القرآن.. وطلب من الله الرحمة لطهطا وأهلها الغلابة...

وقال الجميع : آمين يا رب العالمين...

ولما رجع الشيخ بدوى إلى داره.. أسرع للاطمئنان على وليده رفـاعه.. حمله.. ضمه إلى صـدره.. سالت دموعه.. وقال : ادع معى يا حاجة أم رفاعه.. قولى :

- اللهم استرها معنا.. اللهم ارحمنا برحمتك.. اللهم نجنا من الهم والحزن.. اللهم أعنّا على المماليك والعثمانيين الانجاس.. وكل الاشرار..

رددت الحاجة فاطمة الدعاء مرات ومرات مع زوجها.. ثم مسحت دموعها.. وتنهدت.. و.. تشاغلت بملاعبة طفلها رفاعة.. قالت :

- يارب بارك فى ابنى رفاعه..وزوجى بدوى..

قال بدوى : يلاغيها : الا تريدين شقيقا لرفاعه.. يا جميلة الوجه ؟!

(٧)

عندما هبط الشيخ محمد الانصارى ، من المركب ، عند شط مصر القديمة وفم الخليج ، اكترى حمارا ، واتجه إلى داره فى حى سيدنا الحسين.. وجد شقيقه الشيخ « فراج » يرحب به ، ويخبره :

- الشيخ حسن العطار.. سأل عنك كثيرا.. الجبرتى وعمر مكرم والشرقاوى سألونى أيضا.. متى تعود من طهطا..

فأخذه الشيخ محمد وأسرعا إلى سوق الليمون ، ومنها إلى حارة بعد حارة حتى وصلا إلى دار الشيخ حسن العطار...

كان العطار مشغولا بمراقبة أنابيب تغلى على نار.. ويسجل فى دفتره أرقاما.. ثم يعود إلى أوراق تركها بعض علماء الحملة الفرنسية ويقرأ.. ويحاول أن يعرف.. ثم يضيق صدره ويصيح :

- « هذه العلوم.. توصل إلى أصلها وفصلها علماء الاسلام فى العصر الذهبى.. انها من خير أفعال : جابر بن حيان - محمد بن موسى الخوارزمى - الكندى.. وابن قره.. والبتانى.. والرازى.. و.. و.. و.. وابن يونس وابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وأخذها الأجانب واهملناها نحن.. سنين طويلة حتى غرقنا فى الجهل.. فمتى يا رب تمن علينا بمن ينقلون لنا هذه العلوم الحديثة.. ويخرجنا من ظلمات الجهالة والتخلف؟!..

دق الباب.. ودخل خادمه ، وأخبره بوصول الشيخ محمد الأنصارى وشقيقه « فراج ».. تهلل وجه الشيخ حسن العطار.. وأمر بإدخالهما حالاً...

وصاح وهو يأخذه فى أحضانه :

- تأخرت يا أنصارى فى طهطا.. هل لقلة المراكب فى النيل.. أم ماذا ؟!

قال الشيخ الانصارى : لأسباب كثيرة.. يا شيخ حسن..

ثم.. روى له ما كان من أمر طهطا مع عسكر المماليك و...

أنهى حديثه بفخار : وكانت مذبحة شارك فيها جميع الناس فى طهطا.. وربنا يسلم..

فزع الشيخ فراج ، وقال : « سيعود المماليك إلى طهطا لينتقموا.. و..

قال الشيخ محمد : المصائب لن تتوقف وهؤلاء اللصوص يحكمون مصر المحروسة.. وقد آن لنا أن نطالب بتكوين جيش من ابناء البلاد.. هذا هو الضمان الوحيد..

قال الشيخ حسن العطار : وهل يسمح السلطان العثمانى بتكوين جيش لمصر ؟.. إنه امكر من أن يسمح لنا بذلك.. لأن ذلك فيه نهايته.. إيه !..

- هيا بنا إلى الجبرتى فهو يتسقط أخبار مقاومة أهل مصر المحروسة فى الصعيد والدلتا ليسجلها فى كتابه « عجائب الآثار »

(٨)

كان الجبرتى.. يملى على ولده « خليل » :

- « وفى الثلاثاء.. رابع عشرينه. أى فى شهر يونيه ١٨٠١، تاريخ شهر ربيع الاول سنة ١٢١٦ هجرية ، وقعت أحداث رهيبة إثر خروج الفرنسيين من مصر المحروسة إلى الاسكندرية توطئة لعودتهم لبلادهم.. وعودة الاتراك العثمانيين لوضع قبضتهم على رقاب العباد فى عموم البلاد.. بدأت شهوة الأنتقام والنفوس الموتورة تعمل عملها فى تشوية سمعة أولاد الناس بتهمة التعاون مع بونابرته وقواده الفرنسيس..

توقف الجبرتى لحظات.. يلتقط أنفاسه ، ويداوى صدره ببعض المشروبات الدافئة ، ثم رحب بالشيخ حسن العطار ومحمد الانصارى وفراج الانصارى ، ونظر إلى ابنه « خليل » وأخذ يملى عليه :

- « .. أراد ساكن القلعة وأعوانه والكتخدا ، الانتقام من الشيخ

خليل البكرى.. بتهمة أنه كان يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة ، كما أهدى مملوكه الخاص « رستم زاده » إلى بونابرته الذى صحبه معه عند عودته سرا إلى فرنسا.. كما أن الشيخ خليل البكرى. كان يخالط علماء الحملة الفرنسية ، ويقدم الهدايا والمجاملات لجيش الفرنساوية لدرجة أن أنعم عليه بونابرته وكليبر ومن خلفوهما ، فعينوه نقيبا للأشراف ، وقيل أنه- عفا الله عنه وعنا - كان محبا للحياة الدنيا ، وكان شرابه المفضل مع الفرنساوية مزيج من الكونياك والنبيذ المعتق يشربه حتى الغيبوبة وعدم الافاقة هذا ما يتداوله العامة والخاصة من أقاويل* ..

صمت الجبرتى ، وقد أرهقه الألم.. ورحب بضيوفه ، وقال للشيخ الانصارى :

- سأنصت إلى أخبارك عن الصعيد. وما جرى فى طهطا.. بعد أن أروى لكم وأسجل ما جرى لبنت البكرى.. وغيرها من حريم المحروسة..

ثم التفت إلى ابنه وقال : اكتب يا خليل ما أمليه عليك.. عل أحداً يهتم ببحث ما جرى وما كان.. اكتب والامر لله على الدوام.. اما بعد:

- « .. وفى رابع عشرينه.. طلبوا القبض على ابنة الشيخ البكرى ، وكان اسمها « زينب ».. وكانت ممن تبرجن مع الفرنسيين ، وذهب إليها مندوبين من طرف الوزير - الصدر الأعظم - فى القلعة ، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت

---

* عجائب الاثار - ٩٤/٣ للجبرتى - وراجع ايضا : تاريخ الفكر المصرى الحديث - د. لويس عوض - ص ٣٢ - والى ص ٤٩ - اصدار : كتاب الهلال إبريل ١٩٦٩

تفعله ، فقالت : « إنى ثبت من ذلك » فقالوا لوالدها : ما تقول أنت فقال : « أقول انى برىء منها » .. فكسروا رقبتها ، وكذلك كسروا رقبة عدة نساء أخريات ..

❊ ❊ ❊

واستمر الجبرتى ، يملى ويسجل !

- « .. وكذلك المـرأة التى تسمى « هـوى » التى كانت تزوجت من « نقولا القبطان ».. ثم أقامت بالقلعة ، وهربت بمتاعها ، وطلبها الفرنساوية ، وفتش عليها « عبد العال ».. وهجم بسببها على عدة أماكن ، وهذه المرأة ، كان لها حكاية : فلما دخل المسلمون - العثمانيون - بخروج الفرنسيس.. كان زوجها - الأول - هو « إسماعيل الكاشف » المعروف بالشامى.. فهربت منه وتزوجت « نقولا القبطان » - لكن زوجها الكاشف - حضر وأمنها وطمنها وأقامت معه أياما.. ثم استأذن الوزير الأعظم بالقلعة فى قتلها فأذن له ، فهم بخنقها فى ذلك اليوم ولكنها هربت منه ، فاستفرد بجاريتها البيضاء أم ولده.. وقتلها.. وقتلوا امرأتين من أشباههن. أما « هوى » فظلت هاربة.. وقيل : لعلها ركبت مع مملوك هرب بها إلى الدلتا ، وقيل لعلها تسللت إلى مركب مسافرة إلى الصعيد والله سبحانه وتعالى أعلم بالأحوال... »

❊ ❊ ❊

قال الشيخ حسن العطار : لقد كان ما كان.. وانحدر بنا الحال..

إن مظاهر الحضارة الأوربية ، حين جاءتنا مع بونابرت إلى بر مصر، جعلت تخلفنا سافر او مخيفا..

قال الجبرتى : « ومجمل القول أن ساكن القلعة الصدر الأعظم أطلق شهواته وعسكره للانتقام وتخريب البلاد.. وتأديب العباد.. »

ثم استدار للشيخ محمد الانصارى.. وقال : « والآن يا ابن الانصارى.. اخبرنى بكل ما رأيته وكل ما سمعته وعرفته فى طهطا.. وغيرها من بلاد الصعيد.. وكيف أحوال الناس.. وما يفعله بهم المماليك.. قل كل شىء.. فأنا أتسقط اخبار المحروسة لأدونها..

وأخذ الانصارى يحكى.. والجبرتى يسجل...

ودق الباب.. دخل خادم الجبرتى وقال :

- رسول من السيد عمر مكرم.. يريدكم لأمر عاجل.. وهو فى انتظاركم بالأزهر مع مجلس الأشراف.

فقال الجبرتى :

- إذن نصلى العشاء إن شاء الله جماعة بالازهر.. ثم نرى ماذا جد من أمور.

(٩)

عقد عمر مكرم مجلس الأشراف عقب صلاة العشاء.. فى صحن الأزهر.. وأخذ يتأمل وجوه القوم. الشيخ الجبرتى... الشيخ حسن العطار.. الشيخ إسماعيل الخشاب.. « ثلاثة عقول نابهة قدر لها أن تتجاور بالأزهر فى ذلك العصر العجيب الرهيب ... ثم قال : لقد جرى كل ما جرى والأمر لله.. وعلينا الآن ان نتدارك أمر البلاد والعباد.. المحروسة كلها فى خطر.. وخسرو باشا فى ورطة يخرب البلاد وينهب

العباد.. والمماليك فى الصعيد يسرقون وينهبون اقوات الناس.. والرأى عندى ان يتوقف السيد المحروقى عن دفع الأموال إلى خسرو باشا.. حتى يعجز عن دفع رواتب جنده فينقلبون عليه.. وذلك يسهل الأمور أمام محمد على وعساكره. فيمسكون زمام القلعة..

قال الجبرتى فى غضب : وتسلم رقابنا للألبانى وجنوده.. لا.. الرأى عندى أنها فرصة عظمى لكى نتخلص مـن كل الحكام الأجانب وتتولى يا سيد عمر مكرم أمر حكم البلاد.. والمحروسة كلها معك.

قال عمر مكرم : المحروسة فى ورطة.. والأهالى فى ذعر شديد.. وليس لمصر جيش من أبنائها.. والمماليك والاتراك عساكرهم بالآلاف.. والحل عندى ان تختار أهون الضررين.. وهو حل مؤقت إلى ان نجد للمحروسة جيشاً قويا من المصريين.. ترهب به عدو الله وعدونا..

سأل الجبرتى :

- وماذا بيدك يطمئنك إلى محمد على الألبانى ؟!..

قال عمر مكرم :

- أرى فى محمد على وجنده ميلا لمصالح البلاد.. كما أنه سيكون قوتنا وسلاحنا التى نبطش بهما عدونا..

سأل الجبرتى :

- اسألكم الضمانات يا سيد عمر مكرم ؟..

قال : إننى أعد هذه الضمانات وسأعرضها عليكم فى وثيقة نلتزم نحن بها ونلزم بها محمد على وجنوده على طاعة هذه الأمة.. ولهذا نريد

أموال المحروقى لصالح هذه المهمة.. ونريد دهاء الشرقاوى وسعة حيلته فى المفاوضات والمساومات وأمور البولتيقا.. لنصل إلى هدفنا والله المستعان..

❁ ❁ ❁

بعد أن انفض الاجتماع.. تحركت قوات محمد على إلى القلعة وضربت حولها الحصار.. وأخذ محمد على.. يناور.. فالتقى بالسيد عمر مكرم وصحبه.. وأكد لهم ولاءه التام لأهل مصر.. وأعطاه المحروقى أكياس المال.. ليدفع رواتب عسكره الألبان ويستميل بها كثيرا من عساكر الاتراك والمماليك.. وصار خسرو باشا وحيدا.. ليس أمامه إلا الفرار أو أن يذبحه جنوده.. فلجأ إلى المناورة ليكسب بعض الوقت عله يفوز بالغنيمة.. وأعطى الأمان لعسكر المماليك ليثوروا على أمرائهم.. وأمر جنوده بنهب كل ما يجدونه فى مصر المحروسة.. فتشاركوا مع المماليك فى نهب الأموال والفتك بالأرواح وهتك الأعراض.. وعم الاضطراب والفوضى..

وأمر محمد على. جنده الالبان بالدفاع عن أعراض الناس وحماية أموالهم.. وحدث الاشتباك والقتال.. وعم الذعر والخراب..

❁ ❁ ❁

تجمع أمراء المماليك في الصعيد وفى الوجه البحرى فى جماعات وحاربوا خسرو باشا.. يريدون العودة إلى القلعة.. وحكم الديار... فقتلوا الكثير من جنوده العثمانيين..

❁ ❁ ❁

أرسل خسرو نحو ستة آلاف من جنوده إلى الصعيد للقضاء على امراء وعساكر المماليك.. وتصادموا عند « أرمنت » وطهطا.. فانتصر الامراء والمماليك وعاد جند خسرو.. خاسرين.. فزاد طمع المماليك فى نهب أهالى الصعيد.

دمروا الدور.. سرقوا المواشى والدواب.. استولوا على الغلال والطعام وعلف الخيول.. أحرقوا بعض الدور التى قاوم أهلها.. وهرب الأهالى فى ذعر شديد.. والمماليك يطاردونهم على السكك وفى الحقول.. وارتفع عويل النساء وبكاء الأطفال... وأنين الرجال..

أجبروا الحاج بدوى وأهالى طهطا على الرحيل.. فخرج مع زوجته وطفله رفاعه مشتتين.. مع جيرانهم إلى قرى أخرى كثيرة.. بعيدة..

(١٠)

بعد سفر طويل.. وجوع شديد.. وبعد غربة مخيفة فى الحقول والجبال.. لجأ الحاج بدوى إلى أقارب زوجته الحاجة فاطمة الانصارية وبعد عامين.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة أعوام رجع بأهله إلى طهطا.. فى أحد النجوع.. يعمل ليكسب قوته وقوت زوجه وطفله الذى أخذ يكبر وصار صبيا بمر الشهور والسنين العجفاء.. وأخذ الشيخ بدوى ابنه رفاعه إلى فقيه النجع ليحفظ القرآن الكريم.. ويتعلم مبادىء الحساب وقواعد النحو والصرف وأسرار اللغة العربية ليكون مثل خاله الشيخ محمد ويدخل الأزهر.. وحكى له خاله الشيخ محمد الانصارى ، وخاله الشيخ فرج الانصارى فى زيارات متقطعة.. حكايات عن أحداث الكرب

العظيم الذى حل ببر مصر وأهلها قبل أن يولد رفاعه.. منذ ولد.. وإلى ان أصبح عمره الأن خمس سنوات.. قال خاله :

- لله درك يا رفاعه.. باسم الله ما شاء الله.. لديك قدرة على الفهم تسبق عمرك بزمن. اذن سأهتم بتعليمك كل ما فات من قصص ومآسى التاريخ.. وكل ما حفظته فى مخطوطات الأزهر.. وسأحكى لك سير الأنبياء والرسل منذ خلق الله آدم وحواء ، وسأخبرك بخبر ما أعرفه من قصص الملوك والدول.. وأعلمك سير وجهاد علماء العصر الذهبى للاسلام ولنبدأ الآن فورا.. اكتب يا رفاعه.. واحفظ عنى :

* جابر بن حيان.. ولد فى طوس سنة ١٢٠ هـ - ٧٢٧ - م... وتوفى حوالى سنة ١٩٨ هـ - ٨١٣ - م.. وهو أول من اخترع علما يسمى علم الكيمياء..

سأل رفاعه : يعنى.. تحويل التراب إلى ذهب كما سمعت فقيه المسجد يحكى وهو يحفظنى القرآن الكريم.

قال الشيخ محمد الانصارى غاضبا :

- ابن عماره.. فقيه مسجد ابو القاسم.. له فضيلة أنه حفظ القرآن الكريم وبعض أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم... وحفظ السيره الهلالية.. وقام بدور تاريخى حقا يوم ذبحنا جند المماليك الذين حاصروا طهطا.. غير ذلك فإنه رجل له عقل مخرف يميل إلى الخزعبلات.. عموما له عذره.. فهو لم يكمل تعليمه بالأزهر.. وانشغل بتحفيظ القرآن فى مسجد أبى القاسم بطهطا.. وقراءة أوراق بها تخاريف عن تحويل التراب إلى ذهب..

- ما هى الكيمياء إذن يا خال ..؟

ربت على رأسه بحنان وقال :

- هذا هو السؤال الحكيم منك يا رفاعه. الكيمياء كما قرأت عنها فى سيرة جابر بن حيان ، وكما أوضحها لى صديقى وزميلى الشيخ حسن العطار.. الذى عاشر كثيرين من علماء الفرنساوية.. هى : تراكيب لعناصر علمية وتخليط بين بعض المعادن والسوائل.. لصناعة أشياء مثل السموم.. والدواء.. وروى لى الشيخ حسن العطار أن لابن حيان كتاب معروف عند الفرنساوية اسمه : كتاب السموم ودفع مضارها.. وبه علوم مفيدة عن علاقة الطب والامراض والادوية بصناعة الكيمياء... و..

وأضاف خاله محمد الانصارى :

- وهناك ايضا ما سمعته عن محمد بن موسى الخوارزمى.. الذى ظهر فى عصر المأمون وتوفى حوالى سنة ٨٥٠ميلادية.. ان الخوارزمى هذا.. وضع علم الجبر وعلم الحساب.. وهى علوم فهمها الشيخ حسن العطار عن أصدقائه من علماء الحملة الفرنساوية.. وسأجعله يعلمها لك ان شاء الله عندما تدخل الأزهر..

صاح رفاعه فرحا :

- اذن ستأخذنى معك يا خالى إلى مصر المحروسة..

قال خاله :

- بإذن الله سأستأذن والدك الحاج بدوى فى ذلك عندما يعود..

لكن الحاج بدوى لم يرجع يومها.. ولا بعدها.. كان قد ارهقه العمل مع الترحيلة ، تحت قسوة كرابيج عسكر المماليك فى تعلية جسور نهر النيل حتى لا يغرق الفيضان مزارع وحقول امير المماليك التى استولى عليها بسيفه وكرباجه وعسكره... و...

(١١)

ركب الشيخ محمد الانصارى وشقيقه الشيخ فراج.. وركبت الحاجة فاطمة الانصارية.. ومعهم : ركب رفاعة الطهطاوى.. المركب المتدلية مع أمواج النيل.. من سوهاج إلى مرسى المراكب عند مصر القديمة وفم الخليج..

وقف رفاعه مذهولا.. مندهشا.. يحدق فى القاهرة..

أول مرة يراها.. يرى القلعة.. يرى المسجد الصغير لسيدنا الحسين والزاوية الصغيرة للسيدة زينب.. صاح مبهورا :

- أهذه هى مصر المحروسة يا خال ؟!

قال خاله : هى مصر يا رفاعه.. ومن يدري يا ابن اختى.. ماذا يخبئ لك القدر فيها.. على العموم قل دائما يا ولدى..

قال رفاعه فى ثقة وهو يتعلق بذراع خاله :

- الله هو المستعان.

❁ ❁ ❁

زحف امراء المماليك من الصعيد إلى إمبابة... جهز « خسرو باشا » جيشا بقيادة « طاهر باشا » الأرناؤطى .. لكن الامراء هزموه في « إنبابه »..

وكان محمد على - يتعمد الابتعاد بجنده الألبان.. ليرسل إلى عمر مكرم وكبار القوم ليطمئنه إنه على عهده.. يدافع عن المحروسة وأهلها..

❋ ❋ ❋

صارت القاهرة - مرة أخرى ميدان حرب بين الانكشارية والارناءوط.

وتقاتلوا فى الأزبكية قتالا رهيبا.. وسقط القتلى واحترقت بعض البيوت.. واضطر الأرناءوط إلى التحصن فى القلعة بعد ذلك وعلى رأسهم قوات الالبان بقيادة « سرشيشمة : محمد على.. الذى دبر الأمر باحكام وذكاء.. استمال العساكر بأموال المصرين ومباركة عمر مكرم وكبار القوم.. وحاصر « خسرو باشا ».. ثم طردوه من القلعة.. ثم حارب الانكشارية.. ولم يعد أمامه الا أن يتحالف مع أمراء المماليك المصريين الذين يسخطون على السلطان العثمانى.. أرسل محمد على رسالة بهذا إلى ابراهيم بك.. فتحالف معه ضد خورشيد باشا الذى أرسله السلطان التركى واليا جديدا.. وتحالف مع محمد على مع البرديسى.. ولكن السلطان أصدر فرمانا بتولية محمد على حكم «جدة» فى الحجاز ليبعده عن مصر ، تظاهر محمد على بالاستعداد للسفر وجعل جنوده يحرضون الناس للمطالبه ببقائه.. وذهب بنفسه إلى عمر مكرم وقدم الوعود فصاح عمر مكرم مناديا الاهالى بحصار القلعة والاصرار على بقاء محمد على باشا واليا على مصر المحروسة.. واجتمع الناس ألوفا.. ألوفا.. يوم الاثنين الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥.. واجتمع زعماء الامة مع نقيب الاشراف فى بيت القاضى.. وقرروا تنصيب محمد على واليا.. وحملوه فى موكب عظيم إلى القلعة.. حيث اشتبك بجنوده الألبان ومعهم أهل

المحروسة ضد عساكر الأتراك وطردوا الانكشارية.. واختار محمد على أن يكون ابراهيم بك نائبا له.. لحين أن يقرر نقباء الأمة ما يرونه.. ولحين يرى السلطان ما يراه.. وصار يحكم.. من القلعة.. وينشر عساكره فى المحروسة.. ودعا له العلماء والأهالى بطول العمر.. وتمنى له عمر مكرم : السداد والرشاد فى حكم البلاد وحماية العباد.. فقال محمد على : « يتم كل شىء بمشورتكم يا نقيب الأشراف.

دخل الشيخ حسن العطار وبصحبته الشيخ محمد الانصارى ، وابن اخته الصبى : رفاعه... ضحك الجبرتى.. وقال : دعونا نحاول ترتيب كل ما جرى وما يجرى فى مصر المحروسة من مضحكات مبكيات.. قبل ان أمليه على ولدى ..

انظروا معى.. إلى الآتى.. انت بالذات أيها الصبى رفاعه انصت واحفظ.. وتعلم :

المماليك لم يهدأوا.. أعدو العدة لاستعادة نفوذهم فى حكم البلاد.. غيرة وحقدا على إبراهيم بك ومحمد على.. وكل الآخرين..فأخذ محمد على يمكر بهم.. ويرتب أموره للقضاء عليهم.. وسترى ما سيحدث فى القلعة سيذبحهم لينفرد هو بمصر ..

❊ ❊ ❊

سأل الصبى رفاعه.. باندهاش شديد :

- « كل هـذا يجـرى يا مـولاى.. والناس.. أين هـم الناس؟.. إن الناس فى طهطا.. ذبحوا المماليك ودفنوهم.. دون أن يخافوا.. أبى رحمه الله.. وأمى.. وخالى.. أخبرونى بهذا.. لكن أهل المحروسة ماذا جرى لهم ؟.. »

نظر إليه الجبرتى بأبوة وإعجاب.. قربه إليه.. طلب له كوب حلبه باللبن.. قال :

– « من المهم يا ولدى ان تسأل. لا تكف عن التساؤل.. فهو دلالة النبوغ.. والرغبة الملحة فى الفهم والمعرفة »

ثم استدار إلى الشيخين : العطار. ومحمد.. وقال لهما :

– « ارعياه جيدا.. فهو ولد ذكى.. علماه كل شيء.. كل شيء.. علوم الدين.. وأخبار الملوك والدول.. وأحوال الناس والأرض. فإن قلبى يحدثنى بأنه سيكون ذا نفع عظيم للناس والبلد من بعدنا.. عسى الله ألا يخيب فيه رجاؤنا.. »

ثم أضاف الجبرتى.. وهو يتأمل وجه رفاعه وذكاء واضحا فى عينيه: « علموا هذا الولد كل علوم الدنيا والدين.. هو وغيره من ابناء المحروسة النابهين.. علموهم لينفعوها.. فمصر المحروسة فى حاجة إلى من ينقذ روحها وعقلها من هذا الكرب العظيم.. »

❁ ❁ ❁

عندما خرجوا إلى القلعة ليشاهدوا بداية بزوغ نجم محمد على باشا.. وسط تهليل وتكبير كل الرعية.. أخذ الجبرتى قلمه.. غمسه فى محبرته.. بلله بدموع فرت من عينيه الكليلتين.. وسجل :

– « يا مصر.. انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتون، متباعدون.. مشردون.. واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود..وأرازل الأرناؤود،، وصاروا يقبضون خراجك.. ويهدمون دورك.. ويقاتلون أبطالك.. ويقاومون فرسانك.. ويسكنون قصورك.. ويغدرون بولدانك وحورك.. ويطمسون بهجتك.. قضى الأمر.. واعتلى محمد على باشا حكم مصر. قضى الأمر فاللهم لطفك ورحمتك بالعباد والبلاد.. »

❁ ❁ ❁

الجزء الثانى

شق القلوب وهز العقول

(١)

تسابق رفاعه.. وكريمة ابنة خاله.. تركها تسبقه إلى نهاية فناء الدار.. ضحكت بشقاوة صباها.. وأخرجت له لسانها.. أغاظته.. جذبها من شعرها.. أسقط منديلها الأزرق بلون السماء وترتره من الخرز الأحمر الصغير.. فرك المنديل فى يده.. وهم أن يقول شيئا.. فاجأته كريمة.. خطفت منديل رأسها وأسرعت تجمع شعرها الأسود الطويل.. والضحكات تهز صدرها هزا.. دمعت عيونهما من كثرة الضحك والمرح.. ودار حول نخلة البلح.. حاولا صعودها لقطف البلح الأخضر العجر.. وقعا على الأرض.. جمعا البلح الواقع بين الحشائش.. تقاذفا بنوى البلح ، جاءت النوايات فى الدجاج والأوز فتصايحوا.. بزعيق وفزع.. أطلت أم كريمة مخضوضة من شباك الدار.. لم تجد خطرا يهدد طيورها.. رأت ابنتها كريمة تمازح رفاعه ابن عمتها.. ضحكت.. قالت :

- « لستما من الأطفال.. كبرتما يا مقصوفى الرقبة.. »

لكنها لمحت رفاعه يضم رأس كريمة إلى صدره بطريقة أقلقتها.. وكانت عيناه تنطقان بحب أكبر من سنه.. صاحت :

- « كريمة ادخلى الدار.. حالا.. وأنت يا رفاعه.. هيا.. »

- لكننا نلعب ونتسابق..

قالها رفاعه وهو يطارد كريمة حول النخلة.. ويلهث مرحا.. وهى تتعثر وتنكشف ساقها فيسرع بتغطيتها ويجذبها حتى تقف متثاقلة لتظل متعلقة بيده وقتا.. ورمشت عيناها.. ودمعت فرحا.. وجرت إلى أمها..

- « أما.. رفاعه ابن عمتى شد شعرى !.. »

ضحكت أم كريمة وقرصتها من أذنها.. والتقطت أعواد القش وريش الطيور عن ثوبها.. وقالت بحزم :

- « انتبهى لنفسك يا بنت.. وتحشمى.. فلم تعودى صغيرة.. وجسمك بيخرطه خراط البنات »..

ضحكت كريمة وطوحت ضفيرتها فتطاير شعرها ولمس وجه رفاعه فاحمر وجهه.. وضحكا فى مرح شديد.. وعادا يتسابقان حول النخلة فى حوش الدار.. ويشربان من الزير.. ويرشان بعضهما بالماء..

انشرح صدر أم رفاعه.. الحاجة فاطمة.. فقالت :

- وانا فى سن المحروسة كريمة.. جاء المرحوم الحاج بدوى وخطبني.. ورفض المرحوم والدى.. وقال له « يا ولد.. بلاش لعب صغار.. أنت عيل وهى عيلة.. »

لكن الحاج بدوى ، كان رجلا من صغره.. لم يرهب أبى.. وطلب أن يقرأ الفاتحة معه وقال :

- « سأنتظر سنتين وثلاثة وعشرة.. حتى تكبر فاطمه.. وحتى ترضى بزواجنا.. » و...

دمعت عينا الحاجة فاطمة الأنصارية.. واجتاحتها ذكريات عمر طويل من الحب والغزل والشبع والجوع والبرد والحر والعرق والمرح والزهق..وتذكرت يوم عرسها ، وشاعر الربابة ينشد سيرة الهلالية لمدة أسبوع كامل وأهل طهطا فى فرح وسرور.. والغوازى يرقصن والمغنواتى يهلل بالمواويل الخضراء والحمراء.. و.. و.. أخذت الحاجة أم رفاعه تدندن فى شجن..

- « على النوار يا سماره وعلى النوار.. وأنا ابيع روحى ع النوار »

وراحت أم كريمة ترد عليها بدندنة خافتة ممزوجة بفرح وأسى :

- « أيا شعرك سلب جمال وعلى النوار وأنا أبيع روحى..

- على النوار يا سماره.. وعلى النوار وأنا أبيع روحى..

« و.. انضم رفاعه وكريمة إليهما.. وشاركهما فى الغناء بمرح شديد »

- أيا القورة هلال شعبان وعلى النوار وأنا أبيع روحى..

- أيا الحاجب خط الاقلام.. وعلى النوار وأنا ابيع روحى..

- أيا عيونك غزلان.. وعلى النوار وأنا ابيع روحى..

- أيا صدرك.. طرح الرمان.. ع النوار وانا ابيع روحى..

وضحكوا ببال رايق..

و.. عاد الشيخ محمد.. وقال بمرح وسرور :

- بعد السلام عليكم.. الحقونى بالطعام الدسم. ولو حتى دجاجة.. وجلس قائلا.. هه !.. ازيك يا ام رفاعه !.. »

أسرعت إليه زوجته أم كريمة.. ساعدته فى التخفف من بعض ثيابه.

وأخذت الأنصارية.. كريمة ورفاعه وهمت بالدخول إلى حجرة أخرى.. لكن أخاها ناداها :

– أريدك يا حاجة فاطمة.. عندى لك أخبار تستحق ان تقيمى لنا وليمة كبيرة بذبح سمين جدا..

تهلل وجه الانصارية ، وقالت :

– أعادوا فداديني ؟!

قال الشيخ محمد :

– بفضل الله.. وبجهاد صعب من الشيخ الجبرتى والشيخ العطار.. ووصل الأمر إلى تدخل السيد عمر مكرم شخصيا.. فخاف الكتخدا.. وبكى واشتكى وقال أنا خادمكم بس هاتوا الإكرامية و.. لهف النقدية و..

وضحك.. فضحكوا وغمرتهم البهجة.. فقال الشيخ محمد.. مداعبا أخته :

– المهم.. اعادوا أرضك يا انصارية فى طهطا.. وعدت مرة أخرى من كبار الملاك.. وسيطمع فيك الذى فى قلبه مرض.. وفى نفسه غرض.. وسيقف جباة الضرائب والأتاوات والرشاوى والبراطيل والحلوان.. على بابك.. ولن ينافسهم فى إلحاحهم ولجاجاتهم غير الخطاب الطامعين فى طلب يدك.. من ابنك رفاعه.. ها.. ها.. »

تضاحكوا طويلا حتى دمعت العيون.. قالوا :

– اللهم اجعله خيرا..

وقال رفاعه :

- وكل هذا لاجل أربعة فدادين ؟!..

قالت أمه :

- الحمد لله وهى بالدنيا وما فيها. أرضى وأرض أبوك وأرضك يا رفاعه.. كانت لنا عزبة كبيرة.. وسية طويلة عريضة ورثناها عن أهلينا.. وخطفها المماليك الأتراك اللصوص لكن أنا حافظت على حجة الأرض.. وآدى ربنا أكرمنا.. والبركة فى خالك الشيخ محمد..

قال ضاحكا : يا حاجة الفضل لله وحده.. والمهم.. متى ان شاء الله تقيمى وليمة عظيمة وتذبحين عجلا سمينا.. فزوجتى أم كريمة نشفت جسمى من قلة الطعام.. »

- غدا بإذن الله ناخد المركب ونعود لطهطا لأتسلم أرضى وأرض رفاعه..

قال الشيخ محمد :

- المهم يا رفاعه.. المداومة على حفظ القرآن.. تذكر هذه المسألة لا هوادة فيها.. وضربك لاهمالك فيها أمر واجب لا محالة..

قال رفاعه :- حفظت سورة «الفرقان».. وسورة «الشعراء» والحمد لله..

وقالت كريمة :

- اختبرته عمتى الانصارية.. قبل ان تسمح له باللعب معى..

داعبها والدها.. وقال :

- تدافعين عنه بحرارة دائما.. هه.. على العموم بعد أن نتغدى سأرى بنفسى.. وان اخطأ سأضربه وأضربك..

قالت ضاحكة :

- لكننى أحفظ قصار السور فقط.. قلت انك ستأتينى بشيخة طيبة تعلمنى.. ونسيت يا أبى..

قال الشيخ محمد :

- أنا اعلمك.. وأمك تعلمك.. وعمتك تعلمك.. كل هذا ممكن.. لكن العثور على شيخة تحفظ القرآن أمر صعب.. فالبنات لا يتعلمن فى الكتاتيب كما تعرفين..

قال رفاعه :

- هذا أمر غريب حقا يا خالى.. أحاديث النبى توصى بالنساء خيرا.. فكيف يحرمهم الوالى من التعليم ؟..

نظرا اليه خاله بإعجاب فائق، وقال :

- لا فض فوك يا رفاعه.. أنا معك.. فالحق معك.. لكن.. توالت على المحروسة حكومات همل ومتوحشون.. أهملوا كل شىء.. حتى تعليم الصبية والشباب والرجال.. أهملوه لأنهم يريدون أمة جاهلة يسهل خداعها.. إيه !.. المهم... دع هذا إلى أوانه يا ابن اختى.. دعنا نأكل قبل أن يبرد الطعام.. وبعدها أحكى لك.. بعض ما جرى..

❊ ❊ ❊

ظلت كريمة تبكى فى صمت.. وهى ترى عمتها الانصارية وابن عمتها رفاعه.. يبتعدون فى الحارة.. قالت :

- « أسافر طهطا معهما يا أمى »

قالت أمها وهى تضمها بحنان : « بإذن الله.. رفاعه يعود.. ويعيش معك العمر كله.. »

وأدار رفاعه رأسه وألقى نظرة خاطفة على وجه كريمة وفرح لأنه لمح دموعها.. وقال قلبه أن دموعها بحر من الحب.. و.. اسرع خطاه إلى جوار خاله.. إلى مرسى فم الخليج..

(٢)

.. عند مشارف طهطا.. جفلت الدابة التى تركبها الانصارية مع ابنها.. وبهت «الكارى» صاحب الركوبة.. وقال للانصارية :

- « جهزى الحلوان.. لنمر فى سلام.. »

تساءلت أم رفاعه :

- أى حلوان.. هل ضاع لنا ولد أو بهيمة.. وردها أحد علينا لنعطيه الحلوان..

قال الكارى مذعورا :

- يا حاجة.. الله يسترك.. جهزى الحلوان.. والا ضاعت حمارتى.. وربما عنقى.. وقد ينهبون مصاغك أو يخطفون ولدك..

- ولدى ؟!... لا.. قطاع طريق .. لا يزال بالبر مماليك يسرقون الناس.. كنا فى مصر المحروسة.. وقلنا يظهر عاد الأمان..

قال الكارى : إلا هنا يا حاجة فقد كثر أولاد الحرام..

و.. أوقفهم اثنان من المماليك المشردين.. قال أحدهما بوقاحة:

- الحلوان.. إذا أردتما المرور الدفع يا القتل.. وقال الآخر : كل ما معكم من نقود وطعام وذهب.. فاهمين !..

أخرجت الانصارية قطعة فضة من جيبها.. لهفها أحدهما.. وخطف الآخر القفة من أمامها.. وجريا إلى الحقول...

خافت الانصارية منعت نفسها عن الصراخ والبكاء.. وتحسست ابنها رفاعه لتطمئن إلى وجوده.. وقالت : « يا رب لطفك بالعباد »..

وقال رفاعه :

- « حسبنا الله ونعم الوكيل.. »

وقال الكارى :

- « يا حاجة.. نحن فى كرب عظيم.. ولا حول ولا قوة الا بالله.. هؤلاء الجرابيع يهربون من عسكر محمد على باشا.. لأن الباشا أغا فى الناحية يقتل من يأسرونهم من بقايا المماليك لينظف البر منهم.. ولولا ستر ربنا لذبحونا ذبحا..

قال رفاعه :- سأحكى كل هذا للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ليدونه فى كتابه.. وسأجعله يقول : لابد من نشر الأمان فى البر والنيل

والصحراء والوديان.. حتى تأمن الرعية من شر البلية.. »

فرحت به الانصارية.. قرأت « قل أعوذ برب الفلق ».. ثم « قل أعوذ برب الناس ».. ورقته بدعوات كثيرات وقالت :

- « اللهم بارك لى فى ولدى رفاعه »

(٣)

أقــام أبــو زيــد الطهطاوى عمــدة طهطا ليلة كبيرة لـزفاف ابنته « عديلة » إلى الشيخ فراج الانصارى.. وجاءت كريمة مع ابيها وأمها ومعهما هدايا كثيرة.. وهرول رفاعه مع كريمة إلى أرض الانصارية القريبة من القرية.. جريا كثيرا بين الشجر وقفزا القنوات.. وركبا النورج.. واستندا إلى المحراث.. وصعد رفاعه النخلة.. وقطف لها سباطة بلح.. وهبط النخلة.. وقدم لهاالبلح.. وجريا فى الغيطان وجمعا الأزهار البرية وعصرا العطر ومسح هو وجهها براحتيه.. ومسحت هى وجهه براحتيها وانتشيا.. وأكلا البلح ولعبا السيجة بنوى البلح.. وأسرعا إلى الشادوف ونزحا المياه من النيل إلى الحقل.. ثم جلسا ودليا أقدامهما فى الماء.. وضحكا.. و.. وعادا إلى جرن طهطا الواسع.. أمام دار العمدة.. وقفا مع الأهالى يتفرجون على سهراية فرح عمهم الشيخ فراج.. وعلى دقات الطبل والزمر.. بدأت رقصات التحطيب وهللت الزغاريد..

أخذ رفاعه عصا خاله الشيخ محمد.. ورقص التحطيب مع خاله الشيخ فراج.. ثم مع شباب طهطا.. والجوار.. وشاعر الربابة ينشد :

- قـال الـراوى يـا سـادة يا كـرام.. ما يحلى الكلام الا بالصلاة على النبى.. سيد الأنام ..

- « لما بلغ شبيب التبعى من أمر زحف بنى هلال إلى دياره.. أرسل إليهم يطلب منهم عشر المال وعشر الجمال والبعير.. وعشر الخيول.. وعشر السيوف والرماح والدروع والا حاربهم بعسكره وكتب إليهم يقول.. صلوا بنا على النبى الكريم :

- « يقول المدعو شبيب بن مالك لنا قلب أقوى من صفا الجلمود

سألت كريمة.. رفاعه الذى كان يلهث من رقص التحطيب :

- « ما هو الجلمود يا رفاعه ؟!.. »

قال رفاعه.. لخاله الشيخ محمد : « أدركنى يا خالى العزيز..

.. ما هذا الجلمود ؟..

قال الشيخ محمد :

- هو الصخر شديد الصلابة و... ذكرنى يا رفاعه لأعلمك وأشرح لك المعلقات السبع..

- وما المعلقات السبع ؟..

قال خاله : سأشرح لك كل شىء عن الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى ان شاء الله.. وأجعلك جاهزا لدخول الأزهر والنبوغ فيه.. و..

نظرت كريمة إلى رفاعه.. دعت الله فى سرها ان يعطيه كل ما فى الدنيا من ذكاء.. ليتعلم كل ما يريده والدها.. وأن يكون أهم من نقيب الاشراف ومن الباشا فى القلعة.. ومن الباب العالى.. و..

- أبى.. ما هو الباب العالى ؟..

ضحك الشيخ محمد.. وقال : هو رمز السلطان العثمانى فى تركيا.. وهو امبراطور عظيم - مفروض ان يكون عظيما وعادلا.. والأمر لله من قبل ومن بعد.. لكن.. دعونا الأن نفرح بالشيخ فراج.. فهذه ليلته..

تبادل رفاعه نظرة متعجلة مع كريمة.. وعادا يتابعان شاعر الربابة :

- « وقال الراوى يا سادة يا كرام.. صلوا على النبى العدنان.. لما سمع أبو زيد كلام شبيب.. وانه يطلب عشر الحراير من حريم بنى هلال.. غلا الدم فى عروقه.. ونفض فى قلبه.. وأمسك بسيفه الهصور.. وصاح صيحة الهيجاء والغضب والتهديد والوعيد.. وأنشد يقول.. صلوا بنا على طه الرسول :

- « يقول الفتى المدعو أبو زيد سلامة

لى حرية كالمشعل الموقود ∴ ولى همة تعلو على كل الأماجد

أجعل الاعادى على الجبال شرود ∴ تهيأ غدا يا شبيب.. لحربنا.

مع كل أبطالك وكل جنود. ∴ فكم حاكم مثلك ظلمنا.. فملكنا بلاده

من بعد حرب يشيب لها المولود ∴ « تريد اليوم منا عشر حرارينا.

سوف ترى منا رجالا كالأسود.. »

وهلل الناس فى فرح عظيم.. قال أحد الفلاحين صارخا :

- « لو كان أبو زيد عندنا.. كان ضرب المماليك والأرناؤود والباشا أغا.. وقطع رقابهم بالسيف وأراحنا من الكرب والهم..

شحب وجه العمدة « أبو زيد الطهطاوى ».. وقال فى رجاء :

- « اصمت يا أخى.. اسكت يا بن الناس.. اسكت.. حتى تفوت الليلة بسلام.. »

لكن فجأة انشق الظلام المحيط بالفرح عن عسكر الباشأغا وبعض المماليك وهاج الأهالى هللوا.. تصايحوا.. رفعوا النبابيت والشوم.. أحدهم هز سيفا مكسورا أخذه من مملوك هارب.. وصاح رئيس العسكر:

- نادوا علـى العمـدة.. وحاصـروا الفلاحين وانزعوا سلاحهم !!

ثم شخط : عمدة طهطا.. احضر هنا.. بهيم خرسيس.. قدام حضرتنا..

هرول العمدة شاحب الوجه.. قال :

- « عقبال عندكم جميعا يا باش عسكر أغا.. الليلة فرح بنتى عقبال أنجالك »

- « مطلوب الحلوان.. وترضية لجناب باشا أغا.. وهدية كبيرة لجناب والى القلعة.. واكراميات لنا جميعا.. هيا نفذ قوام يا بن الفرطوس.. »

بهت العمدة.. وبلله العرق.. فالناس يرون ما يجرى له من بهدلة واساءة واهانة.. قال :

- « أنا العمدة هنا.. وهذا لا يجوز أمام المخاليق.. »

قال كبيرهم غاضبا :

- « اذا لم تدفع حالا.. عزلناك فورا.. سامع بهيم خرسيس.. نفذ أوامر عسكر باشا أغا.. »

قال العمدة : « انا دفعت مقدما للباش أغا وأعطيه كل الاتاوات..

ضحك المماليك والعسكر.. ساخرين.. قال كبيرهم :

- نحن مثلما قال هذا الغراب.. شاعر الربابة.. عندنا سيوف أقوى من سيف الهلالى.. تدفع حالا والا.. أخذنا كل حراير نسائكم.. وكل أموالكم وحرقناك انت والبهائم وحرقنا طهطا كلها..

قال العمدة : هذا لا يجوز.. ولا يصح باش عسكر الباشأغا..

قال الأغا : يا عسكر.. هاتو النسوان أسيرات عندى.. واحرقوا..

و.. هجم العسكر على النسوان والبنات.. و..

قفز رفاعه حتى طال ذراع قائد العسكر.. وهبط جاذبا إياه فاختل توازنه واندلق جسده الضخم على الأرض وفزع جواده وجرى بعيدا فطارده مملوك ليمسك به.. بينما رفاعه يضرب الأغا بقالب طوب وهو يصيح : « عليك لعنة الله يا باشا أغا »

بهت الجميع.. اشتد خوف الشيخ محمد وفراج على ابن اختهما.. زاد صراخ وخوف « كريمة » ارجع يا رفاعه.. حيقتلوك وأقتل نفسى..

اسرع الشيخ محمد ليبعد رفاعه.. وصاحت أم رفاعه : ابنى.. حيقتلوه الحق يا رب.. الحقوا ياناس..

والذهول يخرس الألسنة.. الا من رجاء : استر يا ستار.. يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف.. »..

أراد رفاعه الابتعاد.. وجرى بسرعه.. لكن مملوكا أمسكه بصعوبة..

قال الشيخ محمد ، محاولة ترضيه قائد العسكر :

- « هو صبى صغير.. دعه وسأدفع لك ترضية كبيرة.. »

ورفض المملوك.. لكن فجأة.. عض رفاعه يد المملوك.. فصرخ.. وانفلت منه رفاعه ، قبل أن يبتعد رفاعه.. لسعه طرف كرباج المملوك.. وأخذ الجند يجرون خلفه.. صاح الجميع مع كريمة :

- « اهرب يا رفاعه.. انج بنفسك.. »

(٤)

جرى الصبية والشبان ولحقوا برفاعه.. جروا معه احاطوا به.. تاه بينهم.. اتجهوا إلى الحقول.. حاصرتهم خيول المماليك وسيوفهم.. تفرقوا وغطسوا فى الزرع واختبأوا فى الترع والمصارف والقنوات وفوق النخيل والشجر وبئر الساقية..

❋ ❋ ❋

.. قدم العمدة والاهالى الترضية المطلوبة.. قطع فضة.. بهائم.. جملين.. حملين علف للخيول.. طعام كثير.. لكن قائد العسكر أصر على أحضار الصبى الذى أوقعه من فوق جواده.. ليؤدبه أو يسجنه فى دار الباشا أغا.. أو يذبحه بنفسه..

أمر العمدة بالبحث عن « هذا الصبى الذى لا نعرفه.. لأنه أكيدا ليس من طهطا.. » زمجر المملوك غاضبا.. قال العمدة :

- « ابحثوا عنه جميعا.. أحضروه اذا عثرتم عليه.. »

ثم للمملوك : « سأربيه بنفسى اذا وجدناه.. »

وغمز بعينيه للأهالى للتمويه معه وانقاذ الموقف..

تقدم شاب من القرية.. قال : « أنا اللى أوقعتك يا باشا أغا »

أكبر الشيخ محمد.. وفراج والجميع شهامة ذلك الفتى المجهول.. وهموا لانقاذه من العسكر.. لكن المملوك الذى عضه رفاعه.. بحلق فى وجه الفتى طويلا.. ثم قال فى غضب : لا.. لست أنت يا بن الجاموس.. وضربه كرباجين وطرده بعيدا..

أمر القائد عسكره بالبحث عن الصبى الذى أهانه.. واحضاره حالا.. فانتشروا فى طهطا وحولها.. يفتشون وينهبون..

انطلق الشيخ محمد وفراج وبعض الاهالى يبحثون عن رفاعه فى الظلام الواسع .

كان رفاعه نزل المصرف الواسع ليعبر إلى الجهة الأخرى.. لكن الماء وصل إلى صدره.. أراد أن يعوم.. سمع عواء ذئب.. خاف.. عاد مسرعا إلى الشط.. غطس فى الحقول.. وسط الهيش والبوص والنخيل..اندفع ينحبط في الظلام.. ظل يجرى ويتعثر ويقع وينهض ويجرى لاهثا.. خائفا.. لا يرى طريقه.. وجد أمامه نارا خافتة تضىء مساحة صغيرة.. اقترب بحذر.. اكتشف أنه خص من جريد وسعف النخيل والقش وأفرع الشجر.. توقف لحظة.. أراد دخول الخص.. خاف أن يكون به قطاع الطريق.. سمع صهيل ووقع حوافر خيل المماليك.. والكرابيج وأصوات العسكر ، امتلأت الدنيا صخبا ورعبا وضجيجا.. تلفت رفاعه حوله يبحث عن مخرج.. رأى العسكر تحاصره بالخيول.. امتدت ايديهم إليه بالسيوف.. صرخ فى رعب.. وغضب وبكاء..

امتدت يد امرأة قوية.. جذبته بسرعة إلى الخص.. فانخلع قلب رفاعه.. وصاح :

- « الله لا اله الا هو الحى القيوم »

امتدت يد المرأة بسرعة إلى فمه ومنعت صوته حتى لا يعلو.. نظر إلى عينيها.. وجسده كله يقشعر خوفا.. ابتسمت له بحنو زائد.. رأى فى عينيها عطفا.. شفقة.. هلعا.. أمرا بالسكوت..

قال : « انس ولا جان.. » ؟..

قالت هامسة :

- « لا اله الا الله.. »..

قال فى اطمئنان.. وبصوت اهدأ :

- « محمد رسول الله.. »

ضمته إلى صدرها.. فى أمومة عطشى ملهوفة.. قالت :

- « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا.. »

قال :

- « صدق الله العظيم »..

سألته : ما اسمك يا ولدى ..

قال رفاعه ابن المرحوم الحاج بدوى.. من طهطا .... و

توقف جواد بالقرب من الخص..

صاح المملوك :

- « المعلوم يا توابه !.. »

استدارت التوابة.. حاولت اخفاء رفاعه خلفها.. بحرام صوف قديم.. لمحه المملوك.. قال ساخرا :

- « أذن عدت للهوى.. يا توابة.. »

اقترب المملوك وهو شبه دائخ.. كانت رائحة الحشيش تفوح من حلقه وهو يلهث كالكلب مدلى اللسان.. نظر إلى وجه الفتى وعرفه.. وقال :

- آخذ كل ما عندك من مال وذهب.. وإلا سلمتك انت وهذا المجرم الى قائد عسكر الأغا..

و.. ضحك ببال مسطول وقال : لأنى أكره قائد عسكر الباشأغا.. لن اسلمكم له.. أعطينى المال والذهب.. اسرعى يا هوى..

أعطته قطع من الفضة.. وحلقها الذهب..

فأدار جواده وقال : سأعود لك بعد ذهاب قائد عسكر.. لأشبع منك..

سألها رفاعه :

- « وانت ما اسمك ؟.. وأين أهلك.. متزوجه ؟! »

قالت انا اعيش وحدى مع الله.. ولا أهل لى.. واسمى كان « هوى » « هوى بنت عم يوسف الكاشف.. أو جوزيف.. كما كان يسمى نفسه فى مصر المحروسة.. ولكن تلك حكاية يطول شرحا.. »

- « كما تحبين يا ست هوى.. »

« لا تنطق.. فأنا هاربة من حكم بكسر الرقبة فى ساحة القلعة.. »

- كيف ؟..

- اتهمنى ابن عمى بالزنا.. وهو الذى أراد بى الفاحشة لكننى فضحته عند اهلى وجيرانى.. فدفع مالا كثيرا لعساكر خسرو باشا..

ووضعونى بسجن القلعة.. ورأيتهم يكسرون رقبة زينب البكرية.. رشوت عسكرى الحراسة.. أخذنى.. وتركنى أهرب من القلعة وهربت من المحروسة.. حملتنى مراكب النيل إلى الصعيد من بلد إلى بلد.. إلى أن اعتكفت هنا.. استرزق من خيرات الله.. واقرأ القرآن فى بعض الدور فى النجوع وعشت فى البرارى ، وفى خيام الرعاة فى الصحارى.. ويتبرك بى بعض الفلاحين والرعاة وحريمهم.. لأننى أدعو لهم دوما بالخير وأتلو آيات الله..فأسمونى « الشيخة زهيرة » او التوابة..

- « التوابة » ..؟!

- أحب الاسماء إلى روحى وقلبى.. اردده اذا لم أسمعه لأننى أتوب ليلا ونهارا إلى الله عله يغفر لى ويعفو عنى..

دمعت عينا رفاعه.. ثم قال :- فى عنقى دين لك.. تعالى معى إلى أمى وأخوالى فى طهطا لأرد بعض جمايلك.. أنت آنقذتينى من القتل..

قالت:

- « ما فعلت غير الواجب.. وفى الصباح تعود لأهلك.. وأريدك أن تنسى ما رويته لك.. فأنا أخشى مكر بن عمى جوزيف.. وعساكر خسرو باشا.. »

- « لكن خسرو باشا نفسه انتهى أمره من ست سنوات تقريبا.. يحكم المحروسة الآن محمد على باشا.. »

قالت : يتغيرون على قلب المحروسة.. وهى تئن كالثكالى.. يخربون ديارها..

سألها : ممكن تعودى معى إلى طهطا.. خالى الشيخ محمد الانصارى يبحث عن شيخة صالحة مثلك تعلم كريمة ابنة خالى الكتابة والقراءة وتساعدها على حفظ القرآن.. و..

قالت : دع الأمر لله.. واسأل الله ان يطلع علينا الصباح.. دون أن يقتلنا عسس قائد عسكر الباشأغا.. الخرسيس..

« وتضاحكا »..

❋ ❋ ❋

بالقرب من خص التوابة.. كان الشيخ محمد وفراج.. والعمدة.. وبعض الأهالى.. يحملون المشاعل والعصى والفؤوس.. ويفتشون عن رفاعه.. فى الحقول.. والهيش.. والنخيل.. والقنوات.. وبين اكوام القش والحطب.. وبعض العربان... قالوا :

- اكرم الله رفاعه.. انقذته الشيخة زهيرة..

و.. دلوهم على خص التوابة القريب.. أسرعوا إليه.. هللوا.. وحمدوا الله لأنه حى يرزق.. وحكى لهم رفاعه الحكاية.. وعادت معهم التوابة.. إلى طهطا عبر الحقول والجسور.. وأخبر رفاعه خاليه بحكاية الشيخة زهيرة.. فقال الشيخ محمد :

- ان كانت صادقة.. اتخذتها معلمة لكريمة !.. »

.. وفى اليوم التالى سافروا على مركب.. على أن يعود الشيخ محمد أو فراج ليمتحن رفاعه.. فإن أجاد حفظ القرآن.. أخذه إلى الأزهر.. والا.. فليفلح أرض أمه الانصاريه وسافرت « التوابة » لتعلم كريمة...

(٥)

قال الشيخ عمارة.. فقيه المسجد : أحسنت يا شيخ رفاعه.. هيا عد إلى منزلك لتبشر أمك.. وقل لها أننى أنتظر كبشا سمينا هدية إتمامك قريبا حفظ المصحف.

عاد رفاعه من مسجد « ابو القاسم » سألته أمه :

- ماذا حفظت اليوم يا شيخى الصغير ؟..

ابتسم رفـاعـه.. قـال : الحمد لله.. حفظت سورة « فاطر » وسورة « يس » من الجزء الثالث والعشرين.. »

قالت : ما شاء الله.. اللهم بارك.. هيا إذن لتأكل.. ذبحت لك دجاجة سمينة..

❁ ❁ ❁

مرت مياه كثيرة فى نهر النيل.. ورفاعه يجتهد فى حفظ القرآن ليسافر إلى الأزهر ويعيش بالقرب من كريمة..

سافرت المراكب الشراعية بالناس والغلال والعساكر من الجنوب للشمال ومن الشمال للجنوب.. ورفاعه يحفظ القرآن..

وأغرق الفيضان الأراضى والبلاد.. وأقام الأهالى السدود.. ومات خلق كثيرون.. وولد أطفال كثيرون.. ورفاعه يستكمل تعليمه فى مسجد طهطا.. و..

وجاء يوم الامتحان : حضر خاله الشيخ فراج من المحروسة ليقرر هل يأخذه للازهر ام لا.. أشرفت الحاجة فاطمة الانصارية بنفسها على وضوء

ابنها رفاعه.. وجعلته اماما لها فى صلاة الظهر.. وجاء الشيخ فرج ومعه فقيه المسجد « الشيخ عماره ».. وبدأ الامتحان..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. قل ماتيسر من سورة البقرة...

- قال تعالى : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ....

- صدق الله العظيم.. قل ما تيسر من سورة لقمان..

- قال الله تعالى : ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ....

واستمر الامتحان عقب صلاة العصر ، وبعد صلاة المغرب ، وبعد صلاة العشاء.. و..

فى اليوم التالى.. والثالث.. و..

قال الشيخ عمارة مشفقا :

- « لقد قسونا على الشيخ رفاعه ؟!.. يكفى هذا.. خذه واتكل على الله سافر به إلى الازهر.. وسيكون بإذن الله تعالى من المقبولين.. اطمئنوا.. »

قال الشيخ فراج : « سأستمع بنفسى إلى جميع أجزاء القرآن الكريم يتلوها ولدنا رفاعه.. ثم.. إذا كان ممتازا.. فسآخذه معى لمصر المحروسة لا ليدخل الازهر ، بل لكى يمتنحه خاله الشيخ محمد بالمنزل ليتأكد بنفسه من حفظه التام الكامل لجميع السور.. وفهمه للمعانى و.. بعدها يرى إن كان يدخل امتحان الازهر الشريف أم يعود ليفلح الارض فى طهطا..

قال الشيخ عماره فى شىء من الضيق :

- قلت لك ان الشيخ رفاعه حفظ القرآن كاملا فاطمئن ولا ترهق الفتى اكثر من هذا ؟..

قال الشيخ فراج :

- لا أخفى عليك أننا نرجو له أمرا كبيرا فى الدنيا.. ولهذا نرهقه.. فلا تقلق أنت.. هيا يا رفاعه.. اسمعنا سورة «البقرة» وبعدها نستمع إلى سورة الواقعة.. ثم سورة .....

وقرب صلاة الفجر ، هلل الشيخ محمد ، بفرح غامر :

- « الله أكبر كبيرا و الحمد لله كثيرا.. قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان ذهوقا.. انت يا شيخ رفاعه أشرقت علينا جميعا بفضل من الله ونعمة من نعمائه.. بارك الله فيك.. وجعلك رافعا لشأن أهلك وذريتك ووطنك وأمتك الاسلامية بإذن الله...

(٦)

و.. سافروا إلى مصر المحروسة فى إحدى المراكب.. وصلوا إلى دار الشيخ محمد.. وبشروهم بأن رفاعه أتم حفظ المصحف الشريف.. كاملا.. زغردت أم كريمة.. وقدمت أكواب شراب اللبن بالتمر.. وسالت دموع التوابة « الشيخة زهيرة » عطفا وحنانا وإيمانا... وهرعت كريمة بكوب الشراب إلى رفاعه.. وقالت ، وقلبها يضطرب بصوت مسموع فى صدرها الناهد اللاهث :

- بارك الله فيك يا شيخ رفاعه..

وتبادلا نظرات مليئة بالحب الكبير الذى هز العقل ، وشق القلب ، وعطرا بطهارتهما المكان والزمان فى دار الشيخ محمد.. الذى احتضن رفاعه بأبوة.. وقال له :

– غدا بإذن الله أصحبك للأزهر الشريف ليراك شيخنا الكبير حسن العطار.. ويحدد لك موعداً لامتحان القبول..

قالت الحاجة فاطمة :

– لا.. بل بعد غد إذا نجح فى امتحانى أنا له...

دهش الشيخ محمد والشيخ فراج.. سألاها :

– امتحانك انت ؟.. أى امتحان يا حاجة فاطمة ؟..

قالت :

– لقد أرهقنا جميعا السفر.. والسهر.. فدعونا ننام ما تبقى من الليل.. وغدا تشهدون امتحانى الصعب للشيخ رفاعه...

(٧)

فى اليوم التالى.. وعقب صلاة الفجر ، تناولوا إفطارا خفيفا وشربوا أكواب الحلبة واليسنون.. مخلوطا باللبن الحليب.. ثم بدأ الامتحان.. بحضور الشيخان محمد.. وفراج.. وأم كريمة.. وكريمة.. والتوابة.. و..

قالت الحاجة فاطمة :

– يا رفاعه.. لقد انعم الله عليك وعلينا بنعمة حفظ كتابه الكريم.. فالحمد لله.. وأريد ان يطمئن قلبى على أمرك فى الغربة بعيدا عنى..

طوال سنوات التعليم فى الأزهر... كما أريد أن اقابل الله يوم الحساب العظيم وأنا عارفة انى قد اديت الامانة وأحسنت تربيتك وإعدادك

قال رفاعه، دامع العينين :

- يا أمى.. حفظك الله ورعاك.. وجعلنى عند حسن ظنك على الدوام.. وبإذن الله سيطمئن قلبك..

قالت الانصارية :

- « اذن فانتبه يا ولدى.. سأمتحنك فيما علمتك إياه... فى مسائل تهذيب الاخلاق.. وترقيه السلوك.. فى آداب الاسلام فاذكر لى ما يبين فهمك فى مسألة التوحيد بالله.. اذكر آية واحدة من القرآن، وحديثا واحدا من أحاديث النبى الكريم ؟..

قال رفاعه :

- « قال الله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم.. » وقال تعالى : « الله لا إله الا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.. » .. وقال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب إلا يعلمها الا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة الا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الارض، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ».. وقال تعالى : « قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.. »

- صدق الله العظيم.. هه.. اذكر حديثا نبويا ؟

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام الا الله، ولا يعلم ما فى غد

الا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد الا الله ، ولا تدرى نفس بأى آرض تموت الا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله.. »

❁ ❁ ❁

قالت الانصارية :

- « وعن الكسب والعمل الحلال ؟ »

- قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنو أنفقوا من طيبات ما كسبتم » وقال : « ومما اخرجنا لكم من الارض »..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحدكم طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، وكان زكريا عليه السلام نجارا.. »

❁ ❁ ❁

قالت الانصارية : « وعن التعفف فى الطلب » ؟..

قال رفاعه : « قال الله تعالى : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »..

وقال النبى (ص) : ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس.. »

قالت الانصارية : وماذا تعلمت يا ولدى عن.. صلة الارحام..

قال رفاعه - قال الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام »

وقال رسول الله (ص) : « الرحم معلقة بالعرش.. تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله.. »

❁ ❁ ❁

وقالت الانصارية : « وماذا عن اكرام الضيف ؟!.. »

قال ابنها.. قال الله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين* إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال : سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين »..

وقال النبى (ص) : « من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليكرم ضيفه ».

❁ ❁ ❁

قالت الحاجة فاطمة : « وماذا عن حسن الخلق والتواضع ؟! »

قال رفاعه :

- قال الله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم ».. وقال :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » وقال: « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمشى ، فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور »

وقال النبى (ص) : « البر : حسن الخلق ، والاثم : ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس ، وما تواضع لله احد الا رفعه الله.. »

قالت الانصارية : « وماذا عن الحياء.. يا ولدى ؟! »

قال : قال الله تعالى : « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء »..

وقال النبى : (ص) : « إن الحياء من الايمان ».. و « الحياء لا يأتى الا بخير ».. و « الحياء شعبة من الايمان ».. « إن لكل دين خلقا، وخلق الاسلام : الحياء.. »

❋ ❋ ❋

.. صلوا الظهر.. تناولوا الغداء.. وواصلت الانصارية امتحان ابنها.. وصلوا العصر.. وعادت تسأله عن معرفته بآيات الله ، وأحاديث النبى فى أمور : الصدق ، والشكر ، والتوكل والامانة والوفاء بالعهد ، والحلم والاناة والرفق بالانسان وبالحيوان ، وفى صحبة خيار الناس ، والصبر على البلاء ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة والصيام والحج وفى فضل القرآن وتلاوته وفى الصلاة على رسول الله.. و...

بعد صلاة العشاء ، انتهى الامتحان ، نهضت الانصارية.. وسجدت لله شكرا وامتنانا ، واغرورقت عيناها بدمع أحست به ينبع من قلبها حبا وحنانا وعطفا يحتوى الدنيا وكل ما فيها ، داعية إلى الله : أن احفظ رفاعه.. احفظ رفاعه.. وثبت على الايمان قلبه ، وأنر بالقرآن عقله، وارفع به الأمة ، وأزل بفضلك من طريقة كل غمة.. آمين !.. »

قال الشيخ محمد :

- سأنقل عنك هذا الامتحان.. لأختبر به تلاميذى فى حلقات الأزهر.. فإنه يكشف قدرات الحفظ والفهم والتفكير السديد من عدمه.. فلله درك يا أنصارية..

وقال الشيخ فراج :

- أراكم أرهقتم شيخنا النابه.. ومن حقه ان يتجول معنا الليلة.. لنسهر فى حى الحسين ، أو نزور الشيخ حسن العطار..

❁ ❁ ❁

كان رفاعه وكريمة يتحدثان فى حياء وتعثر :

- « ستقيم معنا.. »

- « إلى أن أجد سكنا فى الأزهر.. فهناك رواق للصعايدة .. »

- « إنى غاضبة منك.. لابد أن تسكن معنا.. »

- « وأنا أصالحك بزجاجة عطر أشتريها بإذن الله عندما يوافق خالى على خطبتنا.. »

- « ومتى تطلب عمتى يدى ؟!.. »

- « عندما أتم دراستى الأزهرية بمشيئة الله تعالى.. »

- « تزيد من غضبى »..

- « انشغلى بتعلم دروسك على يد الشيخة زهيرة.. حتى لا أغضب أنا منك.. »

فى الأيام التالية .. أخذ خاله يشرح له أسرار كتاب : « المتون المتداولة فى المعقول والمنقول ».. فعرف رفاعه قدرا من المعارف.. أهله لفهم علوم الأزهر التى سوف يدرسها حالا..

وكان العام هو عام ١٨١٧ / ١٢٣٢هـ...

و... يؤدى رفاعه امتحان القبول فى الأزهر.. ويبهر المشايخ بحفظه للمصحف الشريف.. وفهمه لمعانى الآيات الكريمة.. و.. مرت مياه كثيرة فى النيل... تمر الايام.. والشهور.. السنين.. ورفاعه يكبر.. يزداد قوة.. يصبح شابا وسيما.. ويتحدث الجميع عن تفوقه.. فهو الأول فى كل اختبار.. هتف الشيخ حسن العطار : اعلم يا رفاعه.. أن شيخك محمد مرتضى الزبيدى صاحب كتاب « تاج العروس » سعيد بك.. ويتنبأ لك بمستقبل زاهر إن شاء الله..

قال رفاعه : إنى أواظب على دروسه.. فهو يشرح لنا : فصيح ثعلب- وفقه اللغة للثعالبى - وآداب الكتابة لابن قتيبه - ومقامات الحريرى.. وهى كلها علوم خارج منهج الأزهر.. لكنها توسع أفقنا.. وتزيد من معارفنا..

قال العطار : وسأشرح لك كل ما أعلم من علوم التاريخ - والفقه - والجغرافيا.. وعلوم الفرنسيس الـذين تعلمت منهم إبـان وجودهم هنـا مـع بونابرته.

قال الشيخ محمد : يا لسعد حظك يا رفاعه يا بن اختى.. الشيخ العطار يعلمك بنفسه..

قال العطار : دعنى أقسو عليه.. بقدر ما أتوسم فيه من خير كثير بإذن الله.. لكن لابد أن يواصل دراسته مع مشايخه بانتظام..

إن رفاعه وكل تلاميذ الأزهر هم الرجاء والأمل فى وجه الله..

❄ ❄ ❄

وأخذ رفاعه يحضر الدرس فى حلقات المشايخ : الفضالى - وحسين القويسنى.. والدمهوجى - وإبراهيم البيجورى - ومحمد حبيش - وكانوا أفضل علماء الأزهر آنذاك - وكانوا يشرحون لرفاعه وزملائه كتب.. صحيح البخارى و.. الحكم لعطاء الله السكندرى - جمع الجوامع فى أصول الفقه ومشارق الأنوار فى الحديث - وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك أيضا.. وتفسير الجلالين للسيوطى.. ولعل أكثر الكتب التى أثرت فى رفاعه آنذاك كتاب : مغنى اللبيب فى النحو.. لابن هشام.. كما حفظ رفاعه ايضا كتب : الجزرية - مختصر السعد - قطر الندى ويل الصدى... وألف رفاعه خاتمة لهذا الكتاب وأثار دهشة خاله.. والشيخ العطار.. الذى قال له : « اعلم يا رفاعه إن منهاج الأزهر حاليا لا يكفى.. إن المشايخ يهتمون فقط بالمتون.. رغموض المعنى.. ولكنى أريد منك أن تفكر.. وتبتكر وتقارن بين الكتب.. وسيكون لك درس يومى معى.. أشرح لك كتبا كثيرة أخرى بعد انتهاء دروس مشايخك...

قال رفاعه : خالى اعطانى كتاب مقدمة ابن خلدون وأريد أن تشرحها لى أريد أن أفهم..

قال العطار : وهو يحتويه بفرح: ما أسعد الاستاذ حين يقول تلميذه: أريد أن افهم.. انها الكلمات الطيبة.. نريد ان نفهم ؟.. أى نريد أن نتعلم ؟.. أى لابد ان نبحث.. نتأمل.. نفكر.. نعم «نفكر» هى الكلمة التى ابحث عنها يا رفاعه.. نفكر.. نستعمل هذه الجوهرة الثمينة.. بل أثمن ما وهبنا الله.. العقل. وهل نهضت أمة الاسلام فى عصرها الذهبى الا بالفهم.. والتعلم.. والابتكار ؟..

قال الشيخ محمد : وهل أوصلنا إلى ما نحن فيه من تخلف غير ضياع العقل.. وخاصة من بعض الذين سايروا الاتراك والمماليك ونشروا الخزعبلات والجهل فى الأمة...

قال الشيخ حسن العطار.. تدهورت كل أمورنا فى غيبة العقل ؟.. ليتنا ننهض ونعوض ما فات ، فيصبح لمصر المحروسة جيشها القوى.. ومصانعها ومدارسها ومستشفياتها.. وأطباؤها.. وعلماء الزراعة والأدوية.. وليكن فى علمكم أن العلوم الدينية الشرعية لا تحرم العلوم الوضعية كما يزعم المشعوذون..

قال الشيخ محمد : بإذن الله. وبأمثال رفاعه.. يمكن أن نحقق الكثير من الخير لمصر المحروسة.. على أن ترعى الناهبين جميعا بأبوتك وعلمك يا شيخنا الفاضل..

قال الشيخ حسن : وبشرط أن نبدأ من الآن...

نهض الشيخ محمد ضاحكا : اسأل الله ألا يغضب عليكم مشايخ

المتون والحفظ وتقليد القديم.. أما أنا فأرحل حالا.. ورائى مشوار إلى الشيخ الجبرتى.. لأراجع معه مسألة تخص امرأة قيل أنها كانت زوجة لجوزيف الكاشف وهربت من حكم بكسر رقبتها..

قال رفاعه :

- « مضى وقت يا خالى وقد تأكد لنا صدقها وسلامة أخلاقها.. »

قال الشيخ محمد :

- بل أسعى منذ فترة لأعثر لها على حجة بأرضها ودارها.. لتستعيد أموالها.. التى نهبها يوسف الكاشف.. وعلى العموم لا تشغل بالك بهذه الأمور.. تفرغ لدروسك واعلم أن الله أكرمك بأفضل شيوخنا.. فخذ العلم عنه وإياك أن تخذله وتخذلنا...

ضحك الشيخ العطار وقال :

- المهم ألا يخذل نفسه..

و.. انصرف الشيخ محمد..

وقال الشيخ حسن العطار :

- انتبه يا رفاعه.. سندرس علوم الدين وفقه الشريعة.. وفقه السنة.. وكل ما يتصل بها.. كما سندرس المذاهب الأربعة.. والفروق بينها.. وأما الدرس الذى أبدؤه معك الآن.. فهو عن « مقدمة ابن خلدون و.. معك مخطوط منها.. حتى تقف على أحوال ما قبلك من

الأيام والأجيال.. وابن خلدون- كما ستعرف- هو الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمى.. وانظر إليه ، لتتعلم كيف تتعلم وتشحذ الهمة لتلم بالعلوم وشتى المعارف.. إنه يعرفنا بفن التاريخ ، الذى ينشغل بأمـره زميلنا الشيخ الجليل الجبرتى على أيامنا هذه.. فيقول « أما بعد : فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليها الركائب والرحال ، وتسمو إلي معرفته السوقة والاغفال ، وتتناقش فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال »

دهش رفاعه.. سأل استاذه :

- كيف يا شيخنا.. يتساوى العلماء والجهـال فـى فهـم التـاريخ والأيـام ؟!..

قال الشيخ حسن العطار :

- « ابن خلدون اجاب على سؤالك.. قال : وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها.. وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها.. وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى الآثار الكثيرة ممن بعدهم واتبعوها.. وأدوها إلينا كما سمعوها.. ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها.. ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب كليل ، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق فى الآدميين وسليل.. والتطفل على الفنون عريق وطويل ، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانه ، والباطل يقذف بشهاب

النظر شيطانه ، والناقل إنما يملى وينقل ، والبصيرة تنفذ الصحيح إذا تمقل - أى تأمل - والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل.. »

صمت العطار برهة ، ثم سأل :

- « أعرفت يا رفاعه.. جهد العلماء الأمناء فى فهم التاريخ ، وجهد الجهال السفهاء فى تزيف التاريخ ؟

قـال رفاعـه :

فهمت والحمد لله.. يا شيخى الجليل.. لكننى أطمع فى المزيد .

قال العطار : سأعطيك مقدمه ابن خلدون ».. لتقرأها.. وتستوعبها ثم نناقشها معا.. وحافظ لى على هذه النسخة فهى نادرة..

- وفى درس اليوم كنت سأناقش معك جهد أصحاب الأمانة المعتبرة فى تدوين الأخبار وتواريخ الأمم والدول من أمثال : ابن إسحق.. والطبرى.. وابن الكلبى.. ومحمد بن عمر الواقدى.. وسيف بن عمر الأسدى وغيرهم من المشاهير وستجد التفاصيل فى كتاب المقدمة.. وعليك أن تبحث أنت بنفسك وتدون ملاحظاتك لتعود عقلك على مشاق البحث والتفكير.. وستجد أن ابن خلدون يبدأ بالحديث عنه فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين.. ثم سأذكر لك العناوين.. وموجز مضمونها.. وتقوم أنت ببحث تفاصيلها..

الكتاب الأول : فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوراض الذاتية من الملك والسلطان.. والكسب والمعايش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب .

الكتاب الثانى : فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد.. وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والأفرنجة .

اما **الكتاب الثالث** : فهو فى اخبار البربر ومواليهم من زناته، وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول..

ستجد التفصيل بإفاضة فى كتاب المقدمة لابن خلدون.. فاقرأه.. وبعد أسبوع نناقشه معك.. فلعلك فى يوم قريب تكتب لنا مخطوطة مثلها أو تفوقها.. من يدرى !

قال رفاعه وطموحه يتوثب : بإذن الله سأفعل.. »

- نحتسى أكواب الحلبة بالحليب.. أم تراك تريد كوبا من القرفة والجنزبيل عند الجبرتى ؟!.. هيا بنا إلى هناك.. لنعرف أخبار المحروسة والقلعة..

قال رفاعه : سمعت من خالى الشيخ محمد أن الخلاف اشتد بين الجبرتى ومحمد على باشا.. وبعضهم يتهامس بذلك فى الأزهر..

قال العطار : الجبرتى يريد إخضاع الباشا لمشورة أشراف الأمة.. والباشا يريد أن يستبد برأيه.. والوشاة يزيدون الطين بلة.. وأخشى على الجبرتى.. والعسس يراقبون داره.. ويرصدون زواره..

قال رفاعه : فلنذهب إلى الجبرتى.. ليعرف الباشا أننا مع مصلحة مصر المحروسة ولا نخاف فى الحق لومة لائم..

(٩)

سألهم الجبرتى.. مشفقا عليهم ، حزينا لنفسه :

- « ألا تخافون بطش الوالى محمد على باشا بكم إن نقل إليه البصاصون أخبار حضوركم إلى دارى ؟.. »

قال الشيخ حسن العطار :

- « إننا نستزيد من علمك يا شيخنا ، وليس فى ذلك مخالفة للشرع أو للوالى.. »

قال الجبرتى :

« بل أحسبنى بشخصى كلى صرت جريمة عند الوالى.. إنه لا يكف عن مضايقتى.. وإنى أتوجس منه شرا.. لأنه قد يضع لى السم فى الطعام أو الشراب.. بعد أن جعل عسكره يضربون ابنى حتى الموت.. »

اضطرب رفاعه وقال : سمعت يا شيخنا الجليل.. أن اللصوص قطعوا الطريق على نجلكم وهو عائد من شبرا ليلا.. وسرقوه وضربوه.. حتى الموت.. وأن الباشا أمر بالبحث عنهم..

سالت دموع الجبرتى.. بللت أوراقه.. وبدا فى شيخوخته أشد حزنا وهزالا.. وضعفا.. أخيرا قال بصوته الواهن :

- « يا ولدى.. أنا على ثقة من أن الوالى محمد على باشا الألبانى

الـذى سـرق عـرش مصـر.. هـو الـذى دبـر قتـل نجلى خليل بالقـرب مـن قصر الباشا فـى حدائق شبرا.. هذا خبر يقين رواه لى شهود العيان.. وحققته بنفسى.. أم تـراكم تشكون فيـما أسجله فـى عجـائب الآثـار كلية ؟!..

قال الشيخ العطار :

- « أستغفر الله يا شيخنا الكريم.. قصدنا فقط التخفيف عنك.. والحقيقة.. نحن جئنا نرغب فى معرفة الأحوال ومجريات الأمور لنستنير بحكمتكم.. »

قالها الشيخ.. محاولا ترضية الجبرتى ، ومواساته ، والتخفيف من قلقه ، وأضاف : ثم إنك يا مؤرخنا العظيم.. علمتنا أن نناقش كل ما نسمعه.. ونعرضه على عقولنا.. لنصل إلى الحقيقة..

قال رفاعه : وفضيلتك علمتنى أن أفحص الأقوال بالأدلة التى يسيغها العقل.. ولهذا طرحت عليكم ما يقال لأصل إلى الحقيقة.. أنا تعلمت هذا منكم يوم محمد على باشا.. « زرتكم مع خالى الشيخ محمد الأنصارى.. أيام تولى الباشا محمد على.. »

قال الجبرتى : « تقصد يوم استولى.. وليس تولى.. ولا.. ولى.. لقد خدع الجميع.. وسيطيح بجميع الرقاب.. وأعتقد أن السيد عمر مكرم يعض بنان الندم ، حيث هو سجين داره بأمر من الوالى.. وغدا ينفيه إلى دمياط.. أو إلى طنطا.. أو يأمر العسس واللصوص من عسكره بقتله وتتويته.. كما فعل مع ابنى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »..

وطال الصمت وقتا.. ثم .....

سأله رفاعه : بإذنك يا شيخنا الجليل.. أرجو ان أفهم ما جرى.. لاتعلم منكم وأفهم..

نظر إليه الجبرتى.. طويلا.. ثم قال بأبوة وفرح رغم أحزانه : أتذكرك يا ابن طهطا.. والحمد لله أن وهبك النبوغ الذى توسمته فيك يوم رأيتك صبيا.. كان ذلك يوم مذبحة القلعة.. هه !.. قضى الأمر.. أخبرنى ماذا تدرس بالأزهر.. ؟

قال رفاعه : أدرس على الشيخ الفضالى.. والقويسنى.. والدمهوجى.. و..

قال الجبرتى : إنهم وغيرهم يمثلون أفضل من عرفهم الأزهر فى أيامنا هذه التى اسودت بجهل الحكام وعلوم المشعوذين والأفعال البطالة التى جعلت شيوخ الأزهر يخافون تطوير مناهج الدراسة.. وحصروها فى « المتون » وشروحها التى ألفها مؤلفون مضى عليهم الزمن.. لذا تراهم - ياولدى - يكثرون عليكم فى حلقات الدرس ، من الموضوعات الغامضة ، وتدوين التعليقات الملتوية.. ونجدهم ينفرون - وينفروكم - من أى ابتكار.. أو محاولة للتجديد.. بل إن بعضهم لو ضبطك تفكر أو تجدد.. فربما أطاح برأسك !..

وضحك الجبرتى مهموما.. وضحكوا معه.. وقال رفاعه :

- لكن شيخى محمد مرتضى الزبيدى.. يعلمنا فى دروسه علوما كثيرة عن كتابة الأدب ومقامات الحريرى.. وهى خارج منهج الدراسة..

قال الجبرتى : أعان الله الشيخ الزبيدى.. فهو يجاهد.. بأمانة العلماء حقا..

وسأله رفاعه : وبما تنصحنى يا شيخنا . إننى أريد أن أعرف وأفهم الكثير.. لأنى أسمع شيخنا العطار يتحدث عن علوم جديدة نحتاجها..

قال الجبرتى : الزم العطار يا ولدى.. فهو معقد الرجاء فى هذه الأيام السوداء..

قال العطار : عفوا يا سيدى ومعلمى.. فأنا أحد تلاميذك..

قال الجبرتى : دعنى أحدثه قليلا من علمك وفضلك يا شيخ عطار..

ثم قال لرفاعه : اعلم يا ولدى رفاعه.. ان معلمك الشيخ العطار.. رجل لم تبهره السلطة.. مثلما حدث لعبد الله الشرقاوى.. ولم يصادق الحاكم مثل خليل البكرى.. ولم ينخدع بدهاء الوالى مثل عمر مكرم.. كما أن العطار لم يركز ملاحظاته على النساء وإن أدان سلوكهن.. ولم يقف مع الفرنسيس وعلومهم موقفى أنا الجبرتى.. حيث أعرف أننى إما رافض أو متحفظ على علوم علماء الفرنسيس..

– لكن العطار – يا رفاعه – انتبه إلى ما عند الفرنسيس من علم.. ورأى العطار ضرورة معرفة ما عندهم من معارف جديدة وعلوم نافعه.*

وقال العطار : بعد إذن شيخنا.. لقد اتصلت بعلماء الفرنسيس..

* انظر الجبرتى – عجائب الاثار – والخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك – وأصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى.. د. محمود فهمى حجازى .

ولاحظت فى كتبهم العلوم الرياضية من جبر وهندسة.. واعترفوا لى بأنهم تعلموا مـن مخطوطات « الخوارزمى » المتوفى سنة ٨٠٠ هـ وهو الذى وضع علم الجبر وعلم الحساب. » وأنهم أضافوا إليه بتجاربهم.. كذلك رأيت محال تجارب « القيميائية ».. وقالوا لى أنهم أفادوا كثيرا من مخطوطات « جابر بن حيان » المتوفى سنة ١٩٨م - ٨١٣ هـ وقالوا لجابر فى الكيمياء ، مالأرسطو فى علم المنطق ».. وأن عندهم فى باريز مدرسة لعلوم الكيمياء.. وكذلك رأيت فى معاملهم التى أقاموها فى بيت السنارى وغيره - علوم كثيرة والأعجب اننى رأيتهم يعملون « التشريح للأرانب والضفادع.. لاستنباط الجراحة والعلاج الناجح بإذن الله للبنى آدم.. وقالوا أنهم تعلموا ذلك من مخطوطات ابن سينا وابن النفيس المصرى ، ومنه ومن كتب غيره علماء العرب تعلموا فى فرنسا عمليات التقطير - والترشيح - والتصعيد والتذويب - والتبلور - والتكليس - وكشفوا بعض الحوامض والمركبات وعملوا بعض الأدوية وحصلوا على الزرنيخ والمواد الكاوية.. شىء يخبل العقل يا شيخنا.. أبهرنى وتمنيت عمل مثله لمصر المحروسة..

قال الجبرتى : كيف والحكام المماليك والعثمانيين لأكثر من ثمانمائة عام طويلة السواد.. حجبوا نور العلم عن البلد وعلماء مصر.. وها هو الوالى محمد على فى القلعة ينشر الخراب وحجته الماكرة أنه يبنى البلد.. بكثرة الاتاوات وامتلاك كل الأطيان.. ولا نملك الا التضرع إلى الله...

سأل رفاعه فى خوف : كل الاطيان.. يا شيخنا ؟!

قال الجبرتى : نعم يا رفاعه الوالى محمد على.. ركب وتسلق.. وجعل كل الأملاك وكل الأطيان باسمه.. فملك البلاد ورقاب العباد..

سـأل رفـاعه : وأرض أمـى.. ضـاعت.. كيف ؟!.. كيف حـدث ذلك يا شيخنا ؟!..

قال الجبرتى : « سأوجز لك يا رفاعه.. أحداث الغمة.. لتعرف ما جرى للأمة.. أول هام يا رفاعه.. الوالى محمد على.. بعد أن تسلطن فى القلعه وداهن الأمة.. ومكر بموافقة عمر مكرم نقيب الاشراف.. عاد الوالى وتملعن وظهرت أطماعه بالجملة.. فغدر بالمماليك.. وجردهم من النفوذ والقوة.. لدرجة أنه فى ٣ يناير ١٨٠٧ مات الألفى بك أمير المماليك بانفجار فجائى فى شريان فى صدره.. ومن قبله كان قد مات البرديسى قهرا أو قتلا بالسم.. بعد أن جعله عاريا مكروها من العباد فى كل البلاد.. إذ كان الوالى جعل البرديسى يجمع له الضرائب والإتاوات الكثيرة وشجعه على ضرب العباد وخراب البلاد لدرجة ثار عامة الناس وأفلس الملاك والتجار وصاحوا :

« إيش ياخد البرديسى.. من تفليسى »

وثانى هام يا رفاعه.. أنه فى ربيع ذلك العام من شهر مارس.. جاءت الاخبار بأن بعض سفن أساطيل الانجليز دخلت الاسكندرية وأراد عمر مكرم تجميع الناس لحرب الانجليز..

لكن الوالى غضب وقال لعمر مكرم : أنا وحدى المسئول عن حرب الانجليز.. وحماية البلاد ولازم حالا عمر مكرم تجمع الأموال من الملاك والتجار لتجهيز حملة يقوم بها حضرتنا لطرد الانجليز من البحيرة وكوم حماد ورشيد والاسكندرية.. وأنت تجمع مال كثير حالا..

وهكذا.. يا ولدى. الوالى جعل المصريين ينفرون من نقيب الاشراف عمر مكرم.. ثم أمر بعزله فى بيت القاضي لا يغادره.. وغدا سيغدر به وينفيه أو يقتله.. وهكذا صار الحال - يا رفاعه.. الوالى يرهب الاشراف.. وينهب أموال أهل البلاد ويتجسس على عوراتهم..

قال العطار : إما أن يهب أهل المحروسة لعزل الوالى محمد على.. وإما أن نقابله بدهاء شديد حتى نتمكن من بناء قوة من أبناء الأمة لنطرده آخر الأمر..

قال الجبرتى : إفعل ما تراه انت .. أما أنا فدعني فى آخر أيامى أعلم هذا الولد بعض حوادث التاريخ.. لعل ذلك ينفعه.

استدار لرفاعه.. وقال :

- أعلم يا ولدى.. ان الوالى مستمر فى نهب الديار.. ومن نظام «الالتزام» إلى «الحجر» وعمد إلى «الضبط» و «الكشف» و«التحقيق» وكان قاسيا بحجة « إنشاء السلطة العامة للدولة ».. فأصاب ذوى البيوت والمساتير من الناس. وألغى «الرزق» وأصلها الأراضى المرصودة على البر والصدقة ولأهل المساجد والاسبلة والخيرات.. وكانت تؤدى ضرائب قليلة.. ولما وجد « الاحباسية» من الرزق زادت لدرجة أضعفت ايراد الخزانة حولها لمصلحته تماماً..

ومجمل الحوادث - يا رفاعه : أن الوالى - محمد على - قضى على كل المخالفين له من أمراء ومماليك وأتراك وعلى الأشراف ونقيبهم عمر مكرم الذى هو سجين الهم والكرب فى بيت القاضى.. وأخذ الوالى يفعل كل ما بدا له من شرور وآثام بلا حسيب ولا رقيب.. وجعل رجاله

وعسكره وأعوانه من « الأغوات » يسرفون فى التعنت على الناس.. وتسلط الكشاف والسناجق حكام الأقاليم على البلاد ورقاب العباد.. وغم الغلب والكرب فى كل دار، وأخذ الناس يستجيرون بالله.. فالله هو المغيث.. هو المنجى من كل شر..

وسأله رفاعه.. فى قلق شديد على أمه وفدادينها الأربعة :

- وما العمل يا شيخنا ؟..

قال الجبرتى : الأمل فى الله وحده.. وفى أمثالك إذا تعلمت وعقدت النية..

قال رفاعه : سأبذل كل جهدى والله المستعان.. لكن - عفوا يا شيخنا - كيف أتصرف الآن لأطمئن على أرض أمى.. ثم.. هل أخذ الوالى كل الأطيان.. كلها ؟!

قال الجبرتي : « يا ولدى.. يا رفاعه.. لقد تحولت مصر جميعاً إلى السخرة.. ومن كان مالكاً لأرض صار أجيرا.. وحجته أنه يريد أن ينظم الزراعة ويزيد المحاصيل ويوفر الأموال اللازمة لبناء الدولة.. وتسليح جيش المحروسة.. ولست بقادر الآن على القول إن كان ذلك حكيما من الباشا.. أم هو استبداد منه لأنه صار يملك رقاب العباد.. وكل أطيان البلاد فى مصر المحروسة... ولا حول ولا قوة إلا بالله »

قال رفاعه فى كرب شديد :

- « الله معك يا أمى.. سيأخذون فدادينك الأربعة مرة آخرى.. ومن يدرى متى وكيف تعود إليك أرضك يا أنصارية »!...

(١٠)

في رواق الصعايدة ، هاج « غماش » وماج.. وقال لزملائه :

« بصريح العبارة.. أنا أرى أن الشيخ حسن العطار ، يحابى الشيخ رفاعه.. ويدلله.. ولا يهتم بأحد سواه فى حلقة الدرس.. ولابد أن فى الأمر.. أمور وأمور.. سأشكوهما لمشيخة الأزهر.. »

أسرع القليوبى يقول :

- تحشم يا غماش.. تحشم.. وكف عن عويلك كالنساء.. قبل أن أهشم أنفك !..

فزع غماش ، وعلا صوته :

- تهددنى يا قليوبى ، وأنت يا دمياطى تتفرج سأشكوكما للمشيخة.. و..

تجمع تلاميذ الأروقة على تهليل « غماش » وأخذوا يتضاحكون.. ثار فى وجوههم ، ورماهم بالجهل والغفلة.. قال :

- انتبهوا يا زملاء الدراسة بالمجاورين.. إننا فى المحنة معا.. الشيخ محمد الأنصارى يضطهدنى ويصر على رسوبى عاما بعد عام.. وابن اخته رفاعه.. لا يفهم مثلى.. ولا يفوقنى علما وذكاء.. ومع ذلك يحظى بالشرح والتدليل وأعلى الدرجات وبالنجاح عاما بعد عام.. بل والأنكى من كل هذا العبث بأمانة العلم.. أن يتبناه الشيخ حسن العطار.. ويخصه بالدروس الإضافية ويأخذه إلى بيت ابراهيم كتخدا السنارى « لكى يريه المعامل والآلات التى تركها علماء الحملة الفرنسية

كما يتيح له - دوننا جميعا.. جميعاً.. مكتبته والكتب الأخرى التى حصل عليها من « المجمع العلمى المصرى ».. أهذا كلام يا زملائى. هذا اضطهاد علنى ومع الأصرار على ضياع مستقبلى أنا بالذات.. و..

- « كفى يا شيخ غماش. قلت كفى.. وخصص كل وقتك لحفظ دروسك وفهمها والتفكير فيها لكى تنجو مـن المتاعب.. وتنجح إن شاء الله..

استدار غماش مبهوتا.. فوجد نفسه وجها لوجه مع الشيخ حسن العطار.. وقد جاء يمر على الأورقة ليساعد من هم فى حاجة إلى شرح أو توضيح أو مراجعة.. كعادته.. أصفر وجه غماش.. تلجلج لسانه.. تعثرت كلماته.. سقطت بعض أوراقه.. قال فى حزن وتذلل :

- « عفوك يا شيخنا العظيم .. إن .. فى .. أريد أن تزيدنى علما.. »

قال الشيخ العطار :

- لى ساعة مع زملائك فى الرواق المجاور.. نعيد المراجعة سويا.. فأين كنت أنت ؟!.. تقف هنا وتخرف بأكاذيب.. وتشغل زملاءك عن دروسهم.. كن رجلا.. لا تبكي كالنساء.. اصلب عودك.. كن صلبا.. واجهنى وقل.. ما هى مشاكلك لأساعدك فى حلها بدلا من هذا النباح الذى لا يليق بكرامة طالب علم فى الأزهر.. هه.. تكلم.. »

قال غماش.. فى خجل :

- يا شيخنا الكبير أنت تفضل رفاعه الطهطاوى علينا جميعاً.. تهتم به وحده وتهملنا..

قال الشيخ حسن العطار :

- « أشكرك على صراحتك هذه وإن كانت عن نفس غير سوية.. لكننى سأعلمك شيئا ينفعك إذا أردت ..

- أنا.. يا مولانا.. لا أقصد أن..

- من آداب الحديث يا غماش ألا تقاطع من يحدثك.. ألا ترى إلى أى حد أنت تسىء إلى نفسك أولاً.. اسمع يا ولدى.. الدين النصيحة..

- أى نعم.. أي نعم يا مولانا..

- اسمع يا غماش.. وحاول أن تفهم.. أنا لا أهتم برفاعه الطهطاوى وحده ، بل اهتم به وبالدمنهورى ، والأسيوطى ، والدمياطى ، والقليوبى.. وبعشرات غيرهم من النابهين.. لأن من واجبى ان أعطى عناية خاصة لكل المجتهدين وأن أزودهم بالعلم والمعرفة فى شئون الدين والتاريخ الاسلامى والفقه وكل العلوم الدينية الأخرى إلى جانب اللغة والآداب.. لأنهم جاءوا إلى هنا ليتعلموا.. والأزهر يريدهم جنود علم ورسل معرفة إلى الناس.. أما أنت.. فلم أنت هنا.. أجب يا غماش.

- لأتعلم يا مولانا الشيخ حسن العطار.. لأتعلم.

- كيف ؟.. وأنت مهزار.. دائم اللعب والصياح والاحتجاج على الجراية وألوان الطعام والرواتب والدروس و.. استغفر الله العظيم.. والكاظمين الغيظ..

قال غماش فى رجاء :

- اعطنى فرصة.. فرصة واحدة..

- كيف ؟!.. هل أجعلك تبتلع الدروس بلعا.. أعط أنت لنفسك فرصة واحدة واستذكر دروسك.. والآن.. احضر مع زملائك إلى عمودنا.. ولنجرب درسا جديدا.. هيا..

وابتعد الشيخ حسن العطار.. محاولا التخلص من الضيق واتجه إلى مقعد الدرس.. فتحلق من حوله التلاميذ.. ومعهم أوراقهم وأقلامهم.. وبينهم جلس الطهطاوى صامتا.. حزينا لكل ما جرى من غماش..

.. شرح الشيخ حسن العطار درسا فى فقه السنة ، الحدود والجنايات.. وتساءل :

- ما هو تعريف الجناية ؟..

أجاب غماش بصوت مرتفع :

- الجناية هي أن يجنى إنسان على غيره بجناية ضارة .

ابتسم الشيخ حسن العطار.. وقال :

- هل قرأت الدرس الماضى.. بشىء من التركيز ؟!..

قال غماش : سأقرأه بتركيز هذه المرة يا شيخنا الجليل..

قال الشيخ حسن العطار :

- على كل حال.. فأنت قريب من الجواب.. وأريد من يزيد الأمر إيضاحا..

قال رفاعه الطهطاوى :

- المراد بالجناية فى عرف الشرع : كل فعل محرم.. والفعل المحرم هو كل فعل حظره الدين ومنع منه ، لما فيه من ضرر واقع على الدين أو النفس ، أو العقل ، أو العرض ، أو المال. وقد أصطلح الفقهاء على تقسيم هذه الجرائم إلى قسمين. الأول : جرائم الحدود. والثانى : جرائم القصاص .. وهى الجرائم التى تقع على النفس.

يحذرنا القرآن الكريم من الوقوع فيها.. فى قوله تعالى :

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ».. وقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا.. »

وقال : « إذا الموءودة سئلت* بأى ذنب قتلت ».. وقال : « .. ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما.. »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم كفل من دمها » وقال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق »

وقال : « من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة ، كتب بين عينيه يوم القيامة : « آيس من رحمة الله.. »

وفى باب المحافظة على النفس ، قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ».. وقال : « ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما »..

.. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار.. والذى يطعن نفسه يطعنها فى النار.. والذى يقتحم - أى يرمى نفسه - يقتحم بها النار »..

وصمت الشيخ رفاعه الطهطاوى عندما أشار إليه الشيخ حسن العطار بيده فى أبوة وإعجاب.. وقال : « فتح الله عليك وعلينا يا رفاعه » ثم أضاف :

- أريدكم أن تتفوقوا على زميلكم رفاعه.. فاهتموا بدروسكم..

ونهض الشيخ العطار.. لينصرف..

فاقترب غماش من رفاعه.. وقال :

- أنا أذكى منك بكثير.. وأقدم منك هنا.. بثلاث سنوات.. رسبتها وذلك لسوء حظ يلازمنى.. لكنى لن أسمح لك بالتفوق علىّ هذا العام.. وسترى..

مد الشيخ رفاعه يده إلى غماش فى مودة وأخوة.. قال :

- عاهدنى على ذلك.. سأكون أول الفرحين بك ولك..

اضطر غماش إلى مصافحته بضيق وابتسامته صفراء..وهو يهمس لنفسه :

- نفسه طاهره نقية.. لكن لا أعرف لماذا أكرهه !..

وضحك غماش.. وانصرف..

(١١)

أسرع رفاعه إلى رواق الصعايده.. أخذ يأكل ، ويستذكر دروسه.. وفجأة.. تذكر كريمة.. فشردت نظراته بعيدا.. وأخذ يتذكر لعبهما ومرحهما فى حقول طهطا.. وفى فناء دار خاله بالجماليه.. ورنت فى أذنيه ضحكاتها الحلوة الدافئة فاشتاق إلى رؤيتها.. نهض ليخرج.. لكنه صدم فى غماش الذى قال ضاحكا :

- لى ساعة وأنا أقف هنا أناديك يا شيخ رفاعه.. يا رفاعه يا بن الطهطاوى.. وأنت شارد عن الدنيا وما فيها.. أين كنت يا رجل هه.. أهى جميلة حسناء هيفاء القد مياسة القوام.. صارحنى يا فتى فأنا بهذه الأمور جد خبير و..

غضب رفاعه.. جلس مضطربا.. قال بحزم :

- اياك يا غماش وهذا العبث والاستهتار.. اتق الله واحفظ للمكان الطاهر حرمته.. أنت فى الأزهر يا رجل..

فتح غماش أوراقه ، وقال :

- اسمع آخر ما كتبت من قصائد الغزل فى النسوان الحسان..

صاح به رفاعه :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. هذا لا يليق بك يا غماش.. فأنت هنا لتتعلم و..

وقال القليوبى.. وهو مشغول بكتابة دروسه :

- ابتعد عنا يا غماش.. فأنت من همزات الشيطان.. والعياذ بالله..

قال غماش فى هزر مدعيا الغضب : « هذه اهانة يا جاهل انت وهو.. وعلى كل حال.. انا الأكبر وواجب على أن استحمل.. اسمعا يا جهلة القوم.. وغذيا القلب وتعلما منى.. أصول العشق للنسوان :

يـا هــاجرتى بــلا سبب	إلى متـــى هـــــذا الغضب
لكن كيفمــا شئـت فمــا	للقلـــب عنـــك منقلـــب..
أريــد جسدك وقلبك الذى	أعشقه.. وتعشقينى بلا نصب
ضمينى فـــى أحضــــانك	وقولى آهاتك وغنى بــــلا تعب

قاطعه رفاعه فى غضب شديد : أعوذ بالله.. ارحم نفسك من هوس الشيطان.

قال غماش : هذا غرام لا يعرفه أمثالك يا جاهل.. دعنى أعلمك ما ينفعك..

قال القليوبى : كف عن هذا يا غماش.. واستذكر دروسك ودعنا نحفظ دروسنا.. واذهب إلى شياطينك.. وإلا..

وقال رفاعه فى حزن : اذهب وتوضأ.. تطهر وتب إلى الله.. وانجو بنفسك من النار..

قال غماش : أردت مصالحتك ومداعبتك.. فمالك زدت غضبا وعنى تحولا.. دعنى يا ولد أفتح عينيك على نعيم الدنيا وملذاتها..

قال رفاعه : هذا الكلام الهابط.. لماذا تشغل نفسك بنقله من الكتب السيئة التى يتاجر بها بعض القوادين..

- هه.. قلها يا رفاعه ؟.. باعة الحريم وتجار الهوى فى حوارى الازبكية.. هيا بنا إليهم.. لتمتع نفسك بالنسوان والحشيش والشراب المعتق والطعام الدسم..

صاح رفاعه فى قرف :

- لا تضطرنى إلى ضربك إذا لم تغادرنى حالا.. فأنت تصر على إفساد نفسك.. وتغوينى أيها الفاسق.. ابتعد عنى حالا وإلا قتلتك .

قال القليوبى بحزم : لا تلوث يديك بدمه يا طهطاوى.. دعنى أحمله الآن إلى مشيخة الأزهر.. لينال عقابه..

قال الطهطاوى : يكفى تحذيرنا هذه المرة.. يا غماش.. ولا أحب لك أن تطرد من الأزهر.. ولكن : لا ترمى بنفسك إلى التهلكة..

صاح غماش :

- تهددانى يا طهطاوى ويا قليوبى.. أنا غماش.. أقدم منكما بسنوات هنا.. و....

قال القليوبى : لو أردت صلاح نفسك فاهتم بدروسك فأنت تعرف اننا جيران فى القرى.. يا غماش يا بنهاوى.. وأعرف كل شيء عن تجارة والدك.. وتعدد زوجاته ومشاكله واهماله لك.. ومعذرة لتدخلى فى شئونك الخاصة.. لكني أراك تؤذى نفسك.. ولن تجد من ينفعك فوالدك مشغول بأموره عنك..

صرخ غماش.. ودمعت عيناه.. قال :

- سأشكوكما للشيخ حسن العطار.. وسأرى بنفسى.. فلعله هو

الذى دفعكما لإيذائى.. وإهانتى ، لذا لا مفر من رفع أمركم إلى المشيخة.. لتأديبكم !.. سترون ما يفعله غماش.. يا جهلة !..

(١٢)

جاءت الانصارية من طهطا.. إلى دار أخيها الشيخ محمد.. قالت سرقوا الدجاج والبط والأوز والجبن والزبدة.. والفطير.. وأسرع الشيخ محمد إلى الرواق ، وحصل لرفاعه على اذن بالخروج لبضع ساعات..

ودق قلب كريمة بالبهجة لرؤيته.. لكنها تعثرت فى الخجل.. هرولت إلى الشيخة التوابة.. لتسألها :

- كيف أكلمه.. أوحشنى كثيرا كثيرا..

داعبتها معلمتها فى أمومة.. قالت :

- بقى عام أو عامان وينهى دراسته.. فاصبرى يا كريمة.. فحالك لا يعجبنى..

نهضت مسرعة.. قالت :

- هو ابن عمتى.. من حقى الجلوس إليه أمامهم.. و.. احادثه ويحادثنى...

وجدته مهموما.. حزينا.. توقفت كريمة حائرة.. قلقة.. جلست إلى جوار والدها.. متسائلة :

- ماذا جرى يا أبى ؟.. هل أغضبتم رفاعه ؟..

قال والدها فى حزن :

- بل هو الباشا الذى يغضبنا كل يوم.. أخذ أرض عمتك الانصارية.. ورهن دارها لحين سداد ما تأخر عليها من ضرائب..

قالت الحاجة فاطمة ، وقلبها يئن من الهم :

- دفعت الضرائب مرتين.. وهم يغالطون.. وجاءوا كالحدادى والغربان والذئاب.. خطفوا كل شيء.. الأرض.. والدار... و..

خنقتها الدموع..

وأخذ رفاعه يقبل يديها ورأسها.. ويرجوها :

- لا تحزنى يا أمى.. فإن الله معنا.. لا تحزنى.. سأعوضك بإذن الله بأرض اكثر منها.. ودار اكبر منها.. فقط اصبرى وما صبرك الا بالله..

وسالت دموع كريمة..

وقال رفاعه فى عزم عنيد :

- بقى عام وبضعة شهور.. وانهى دراستى يا أمى.. ودار خالى دارك.. وسأحضر لرؤيتك مرة كل أسبوع بإذن الله.. وبعدها.. سيكون لنا قصر بحديقة واسعة.. وسيكون عندك جوارى من الاجنبيات ما يزيد عن حاجتك.. وسأقوم أنا على خدمتك.. الاحلام كثيرة يا أمى.. كثيرة.. بطول المحروسة وعرضها.. بتدفق نهر النيل.. بعدد الطيور والحقول وحبات الرمال والحصى وبارتفاع الأهرامات واكثر واكثر يا أمى.. فقط دعواتك الصالحات يا أمى..

وهرول خارجا إلى الأزهر.. نسى أن يأكل.. نس أن يرى كريمة فانهمرت دموعها !..

الجزء الثالث

المدينة الضالة
المدينة الفاضلة

(١)

ازدحمت الحوارى.. والأزقة ، بحوادث الشجار وتمزيق الثياب.. ورأى رفاعه.. ورأى الشيخ حسن العطار ، فى طول الطريق إلى بيت كتخدا السنارى بالجمالية ، النسوة يجذبن العيال شبه عرايا ، وإحداهن تتعارك مع جمّال كان يشترى منها حمل علف وهى تساومه.. وامرأة أخرى بجوار مدق فول الطعمية وجزار تنبح حوله الكلاب وتموء القطط.. واكوام الأوساخ والذباب والهوام.. صرخت امرأة ومزقت جلباب بصباص يغازلها ، وندفت له شاربه ثم شقت جلبابها وبدت عارية ولطمت وجهها ونكشت شعرها وقالت : « الجربوع قال لى يا فاجرة » !..

استعاذ الشيخ رفاعه.. وقال الشيخ العطار :

- « وهؤلاء ضحايا المصائب والنوائب وهم فى المدن الفاضلة وفى المدن الفاسقة.. ومثلهم - كما يقول الفارابى - مثل الشوك النابت بين الزرع ، ومنهم البهيميون بطبعهم، وهم أشبه بالبهائم الانسية أو

الوحشية.. يأوون متفرقين أو مجتمعين.. تجدهم فى المدن وفى النجوع والقرى.. منهم من يعيش على اللحوم النيئة، ومنهم من يعيش على النبات ، ومنهم من يفترس مثل السباع، فمن كان من هؤلاء إنسيا يترك ويستعبد وينتفع به كما ينتفع بالبهائم، وإلا فيقاتل كما تقاتل سائر الحيوانات الضارة »

سأل رفاعه :

- زادت الأحوال سوء.. فما العلاج ؟..

- بالنسبة لك.. بأضعف الإيمان.. قلبك.. والإصرار على أن تتعلم وتتعلم.. وتحاول ترقية المجتمع.. لعل وعسى..

(٢)

انتهى المصور « ريجو » من رسم صور الأدميين الهمل.. يتشاجرون.. وخلفهم اهرامات الجيزة ، وأمامهم مآذن الأزهر.. وبعض الجمال والحفاة.. ورجل له عضلات وحشية فمه مفتوح كالسباع وحول صدره سلاسل تتمزق.. وأمامه غازية.. وبجواره فتى عارى الصدر ممزق السروال يطوح شعلة النار فى خرق بالية.. قال رفاعه :

- سبحانه الله.. من يرى هذه الصور يظن أنها مجسمة تكاد تنطق..

ابتسم الشيخ العطار ، فى جلسته ، بينما « ريجو » يرسم وجهه بزيوته وبوياته وفرشاته ، قال العطار :

- انتظر حتى ترى صورتك يا رفاعه.. مثل هذه الصور للمشايخ والأعيان.. هذه الصور كانت تعلق فى مجالس سارى عسكر بونابرته.. وها هى الآن.. مع « ريجو » فى التراب والنسيان و..

و.. لكن دعنا نعود إلى درسنا.. وهو اليوم عن الفارابى.. أكبر فلاسفة الاسلام.. عاش ما بين ٢٥٩ هـ - و ٣٣٩ هـ.. وعاش مدة فى كنف سيف الدولة الحمدانى ملك حلب.. فى وقت كانت الدولة العباسية فيه منقسمة إلى دويلات.. وكان النفوذ التركى يتعاظم..

قال رفاعه :

- « أنا قرأت كتابه عن أهل المدينة الفاضلة فى المخطوطة التى نقلتها يا شيخنا.. كما ذكرت لى..

ضحك حسن العطار وقال :

« آه.. يا لها من أيام.. كنت أصغر منك يا رفاعه.. فى بداية تعليمى الأزهرى.. وأبحث عن الكتب فلا أجدها.. وتعرفت على وراق فى حانوت مجاور للأزهر.. كان يهوديا يجمع عنده الكتب القديمة.. وكان يطلب ثمنا كبيراً أو رهنا ثمينا.. وأنا رقيق الحال.. فعرضت على اليهودى أن أنسخ له بعض الكتب بخطى.. مقابل أن آخذ لنفسى نسخة و.. اكتشف اللئيم أنى الرابح فى نهاية الأمر.. فعاد يساومنى.. وباعنى ما أريده بنصف الثمن على أن أنسخ الكتب بنفسى.. هكذا حصلت على بعض عيون الكتب مثل : جامع الجوامع فى أصول الفقه - والسيوطى فى تاريخ مصر عن عصر المماليك و.. وشرح ابن عقيل.. وصحيح البخارى.. ومقدمة ابن خلدون.. وطوق الحمامة.. ورسالة فى الصداقة والصدق لجابر بن حيان.. وكليلة ودمنة لابن المقفع.. وغيرها وغيرها.. من أمهات كتب أكابر المفكرين الاسلاميين.. فى العلوم والرياضيات والفلسفة و.. هه.. انتهيت يا مسيو « ريجو » من

صورتى.. آه ما أجملها.. وسبحان الله وما أجمل مخلوقاته.. والآن هيا ارسم لنا هذا الوجه الصعيدى.. الذكى..

جلس رفاعه أمام « ريجو » وأخذ يرى لمسات الريشة وهى تظهر ملامحه ببراعة.. و..

قال رفاعه : لماذا لا يوجد رسام مثل « ريجو » فى مصر المحروسة ؟. إن النقوش والزخرفة أراها على جدران المساجد والأدوات والأنية فى الأثار الاسلامية.. كما أراها على جدران معابد الفراعنة فى الصعيد.. فلماذا تدنت أحوال المحروسة.. وصرنا فى ظلمات الجهل ؟!..

قال العطار : المهم انك تدرك.. وتفهم.. وعليك أن تكون مثل الفارابى.. وابن خلدون.. والجبرتى وغيرهم..

قال رفاعه بمشيئة الله.. أحاول.. يا شيخى الجليل..

قال العطار : لا يكفى أن تحاول يا فتى. قل بإذن الله سأفعل.. هه.. فما أكثر ما تحتاج إليه مصر المحروسة.. من كل أبنائها النابهين.. لتنجو البلاد من ظلمات الجهل والشعوذة..

ثم أضاف : نعود إلى مسألتك عن قول الفارابى.. عن المدينة الفاسقة.. اقرأ ما عندك.. ونفكر فيه معا ونناقشه بعون الله.. بينما « ريجو » يكمل رسمك الجميل..

قرأ رفاعه :

- « فى باب المدن غير الفاضلة.. قال الفارابى :

- « المدينة الجاهلة ، وهى التى لم يعرف أهلها السعادة ولم تخطر ببالهم.. وجل اهتمام أهلها هو سلامة الأبدان ، والحصول على الثروة وممارسة اللذات.. وهم يرون فى ذلك سعادتهم .

قال الشيخ حسن العطار :

- « وللمدينة الجاهلة عدة أقسام.. منها :

المدينة الضرورية.. ويقتصر أهلها على الضروريات التى تحفظ عليهم صحتهم.

والمدينة البدالة : ويتعاون أهلها على بلوغ الثروة لذاتها.. ومدينة الخسة والشقوة : ويقتصر أهلها على التمتع باللذة المحسوسة..

ومدينة الكرامة : ويتعاون أهلها على أن يصيروا مكرمين ذوى عظمة وشهرة ، سواء بالقول أو بالعمل..

ومدينة التغلب : وغاية سكانها التغلب على غيرهم.. وسعادتهم فى هذه الغاية.

والمدينة الجماعية : ويعيش أهلها حسبما يشاءون.. وليس لأحد منهم على أحد سلطان.

- اكمل انت يارفاعه..

- ومدينة النذالة : ويتعاون سكانها على جمع الثروة فوق ما يحتاجون ولا ينفقون منها..

- والمدينة المتبدلة : وهى التى يعتقد أهلها ما يعتقده أهل المدينة

الفاضلة من أراء. ولكنهم تبدلوا.. فدب الفساد فى أرائهم وأفعالهم.

- والمدينة الضالة : وهى لا يسير أهلها على العقيدة الصحيحة فى الله والعقل ، ويخدع رئيسها الناس ، ويدعى أنه موحى إليه.

- ثم.. المدينة الفاسقة : وهى التى عرف أهلها ما يعرفه أهل المدينة الفاضلة ولكن أعمالهم تشبه أعمال المدن الجاهلة..

وهذه هى المسألة يا شيخنا الجليل..

فاجأه الشيخ حسن العطار :

- قل سؤالك بلا حرج أو مواربة.. لا تهاب ولا تجبن طالما عقلك على طرف لسانك..

التفت إليه رفاعه.. وسأل :

- أليست هذه أحوال مصر المحروسة.. فى زماننا هذا ؟!.. أينما سرت.. وتلفت حولى.. وجدت كل المدن غير الفاضلة فى مدينتى هذه.. مع أن الباشا يسعى لإصلاح الحال.. وليته يكون على شىء من العدل.. ليتنفس الناس قليلا وتزول عنهم الهموم والكروب. والنوازل.

قال الشيخ حسن العطار :

- هذا مربط الفرس يا رفاعه . الباشا يعلن فى مجالسه ودواوينه أنه يبغى الاصلاح وبدأ فى بعض المشاريع..

قال رفاعه : - الحاكم يقول .. ولا يفعل !..

- .. الحاكم لا يصلح بمفرده.. قلت لك.. يجب أن يسعى أولى

الألباب من قادة الأمة لمعاونته.. وتنويره بصوالح الأعمال لإبعاده عن الاندفاع وإلزامه الروية.. وحمايته من شرور وأغراض أعوانه فى دواوين الدولة.. وهذه من أراء الفارابى فى حديثه عن مهمة رئيس المدينة.. وقواعد الحكم..

سأل رفاعه :

- وهل يقبل الباشا ؟!.. لقد عزل السيد عمر مكرم فى داره.. وأبعد كل من حاول تقويمه.. ومده بالرأى والمشورة..

- علينا أن نحاول يا رفاعه.. لاصلاح الحاكم.. وترشيد المحكومين.. وعلى الأقل ليتنا نقدر على تقليل عدد مدننا غير الفاضلة.. لكن يا رفاعه.. ولكل ما قلناه الآن.. أطالبك بمضاعفة الجهد.. لتجتاز امتحانات نهاية الدراسة الأزهرية ، نهاية الشهر.. ونستعد للعمل.

سأل رفاعه :

- أى عمل يا شيخنا ؟..

قال الشيخ العطار :

- تعلم معنا الاجيال الناشئة بأعمدة الأزهر.. تنبه عقولهم.. ثم.. الأهم هو أن تظل متوثب الهمة ، وتعد نفسك ولا تكف عن تحصيل العلوم والمعرفة فى شئون الدين والدنيا.. فمن يدرى أية مهام جسيمة قد يلقيها القدر على عاتقك يا ولدى ؟.

صاح « ريجو » : ها.. ما رأيكم.. هل رأيت الذكاء الذى يطل من عينيك يا شيخ رفاعه..

قال رفاعه :

- صورة جميلة.. فسبحان الله خير مصور .

وقال الشيخ العطار :

- هيا بنا يا رفاعه : وشكرا لك يا مسيو ريجو.. سنتجول فى بيوت كان يقيم بها علماء الحملة الفرنسية.. رفاقك يا ريجو.. لكن قل لى.. لماذا لم ترجع معهم لفرنسا ؟!..

قال ريجو : لأننى.. شيخ عطار.. وقعت فى غرام الأثار الاسلامية.. والفرعونية والقبطية.. لن أفارقها حتى أتم رسمها فى لوحات..

قال رفاعه :

- ليتك تنقل منها بلاغة ما تروية هذه الآثار.. من تاريخ وأخبار.. عن همة أجدادنا الذين كانوا هنا وصنعوا حضارة ضاعت واندثرت فى زمن المدن الفاسقة.. لسوء حظنا..

قال الشيخ حسن العطار : هدىء من روعك يا رفاعه.. واصبر فقد يغير الله الحال إلى الأحسن.. من يدرى.. المهم.. دعنى آخذك إلى دار الصيدلى « رويا ».. فقد كان له مكان فى « بيت ذى الفقار كتخدا » انه قريب من هنا..

(٣)

بقايا قوارير زجاجية.. وأنابيب.. وأدوات ورقائق.. انبهر رفاعه لرؤيتها.. سأل :

- أوليست شبيهة بأدوات كيميائى الاسلام جابر بن حيان..

- مؤكد يا رفاعه.. فاصدقائى علماء الحملة الفرنسية صارحونى بأنهم تعلموا من علماء الاسلام ونقلوا عنهم وعندهم كتبهم فى خزائن كبيرة.. انظر..

- « لقد أفردوا أماكن هنا أيضا للمهندسين وصناع الرقائق ، إلى جوار سكن الحكيم - الصيدلانى - « رويا ».. انظر.. هاهى بقايا آلاته ومساحيقه وأهوانه ... وكان يركب هنا تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الأملاح . وكانت هذه الرفوف تمتلئ بالبرامات والقدر المملوءة بالتراكيب والمعاجين . والزجاجات المتنوعة.. وكان هنا أيضا عدد من الأطباء الجرايحية.. »

سأل رفاعه :

- لما لا يستفيد الباشا من هذه الأدوات والآلات والتراكيب ؟!

ضحك الشيخ حسن العطار فى حزن ، وقال :

- ومن يستعملها ويشغلها ؟.. هل نسيت يا رفاعه.. انك أنبه تلاميذ الازهر.. فهل علمناك شيئا من هذا ؟!..

ألم أقل لك يا رفاعه ان مصر ينقصها الكثير من المعارف.. تعالى يا ولدى أريك شيئا.. أو أثرا آخر..

....

....

فى دار « حسين كاشف جركس ».. أفردوا مكانا هنا لصناعة الحكمة والطب الكيماوى.. قالوا لى هذا.. وجعلونى أشاهدهم وهم يبنون تنانير مهندمة وألات تقطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد السوائل والفقاعات وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلاءة و... وكان هنا.. وهنا.. قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلفة الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات ، وبداخلها كافة أنواع المستخرجات .

قال رفاعه :

– تعلموا من أطباء وفلاسفة وعلماء الاسلام ونقلوا عنهم من مصر والشام والاندلس.. وسبقونا يا شيخنا..

قال الشيخ العطار :

– كف عن تحسرك على الماضى ، وأطلق طموحك يا ولدى.. جدد همتك لتدفعك نحو هذا التطور.. فعسى أن تفعل شيئا.. هه..

انظر يا رفاعه.. من أغرب ما رأيت فى هذا المكان أن أحد علماء الحملة الفرنسية – أخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر.. ضيقة الفم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح فى الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتهما ، وانزلهما فى الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء فى إحدهما ؛ وأتى بأخر بفتيلة مشتعلة ، وأبرز ذلك ، فم الزجاجة من الماء ، وقرب الأخرى المشتعلة إليها فى الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع

بصوت هائل مخيف.. وغير ذلك أمور كثيرة ، وبراهين حكيمة تتولد فى اجتماع عناصر وملاقاة الطبائع..

وأضاف العطار.. كما رأيت فى معاملهم تجربة عن.. شىء مثل « القلعة » المستديرة.. كانوا يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء.. كثيف.. ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا أمسك شخص خيطا لطيفا نحيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة بالفلقة ، أو ما يقرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برعشة رهيبة.. ولو كانوا ألفا أو أكثر.. « يقصد بقوة التيار الكهربائى ».. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا.. »*..

قال رفاعه.. فى اندهاش :

– لقد سبقونا فى بلاد الفرنجة.. سبقونا كثيرا يا مولانا..

قال الشيخ حسن العطار :

– أرجو أن تفعل أنت شيئا.. علنا نلحق بهم ذات يوم..

– كيف يا شيخنا.. وكل شىء من حولنا ضربه الفسق والجهل..

قال الشيخ العطار :

– ولا تقنطوا من رحمة الله . هيا بنا نعود.. فالشيخ الجبرتى مريض ويجب أن أعوده.. صار لا يرى أمامه..

– أذهب معك .

---

* – انظر الجبرتى.. فى عجائب الأثار– ود. لويس عوض فى تاريخ الفكر المصرى ص ٢٥ – ٢٦ –

– على أن تعجل بالرجوع إلى رواقك لتراجع دروسك وتعد نفسك للامتحان.. سأجعله بإذن الله عسيرا.. لنبلونكم أيكم أحسن عملا..

(٤)

زغردت الحاجة الانصارية.. وأم كريمة.. وكريمة.. والشيخة زهيرة التوابة.. وأخذ الشيخ محمد.. رفاعه فى احضانه ، وقبله مهنئا.. و.. وزعوا أكواب شراب التمر والبرتقال على الجيران.. ودخل الشيخ فراج حاملا جبة وقفطانا جديدين، وشالا وعمامة فخمة.. وقال الشيخ العطار:

– ايه يا رفاعه.. انتهى الجهاد الأصغر وبدأ الجهاد الأكبر..

قالت كريمة :

– اتركوه يستريح يا مشايخنا الكرام.. يعمل فى الأزهر مثل أبى ويعود إلى داره..

ضحك الشيخ العطار.. وداعبها قائلا :

– ساعدينا اذن يا كريمة.. واجعلى له دار سعد وهناء

خجلت كريمة وهرولت تتوارى خلف أمها..

قال الشيخ محمد :

– آن لنا أن نتدبر أمورنا بشىء من الروية.. ماذا فى خاطرك يا شيخ عطار.. ؟..

قال العطار :

– سيعمل رفاعه بالأزهر من أول الشهر ان شاء الله.. يعلم المستجدين لبعض الوقت حتى لا نوغر صدور أحد علينا..

قال رفاعه :

- وخاصة الشيخ غماش .

ودق الباب ، لدهشتهم ، ودخل غماش وزملاء الرواق محملين ببعض الهدايا البسيطة.. قال غماش :

- بربكم لا تخجلوا تواضعنا.. اليد وما ملكت.. هدايانا ليست من مقامكم.. لكن فرحتنا بالشيخ رفاعه كبيرة..

ضحك الدمياطى وقال :

- وحاجتنا إلى الوليمة التى حدثنا بها رفاعهشديدة !..

وضحكوا..

قال رفاعه.. محرجا :

- وليمة ؟!..

قال غماش:

- أنت قلت ذلك فى رواق الصعايدة بملء شدقيك.. سأولم لكم وليمة سلطانية.. ها. ها.

قال رفاعه :

- عندما أجد دارا.. قلت هذا..

قال الشيخ محمد :

- هذه دارك يا رفاعه.. وأهلا بأصحابك ورفاقك.

قال رفاعه :

- أنا قصدت أنه يوم الزواج ان شاء الله..

صفق غماش.. وهلل صحبه فى تحشم وقال :

- هذه هى الحكاية إذن ؟.. وماذا تنتظر يا شيخنا.. أصبحت من رجال الأزهر.. والراتب موجود.. والعروس أيضا..

وبحث بنظراته فى أرجاء الدار بعين خادشة.. نهره رفاعه :

- غماش. تحشم يا رجل ؟!..

وتكدر وجه الشيخ محمد ، والشيخ حسن العطار قليلا..

لكن الشيخ فراج قال فى مودة :

- إلى الطعام إذن.. ولندع أمر المسائل العائلية لأهلها.. تفضلوا.

❋ ❋ ❋

كانت كريمة بالداخل ، واجفة القلب ، فقد انصرف ضيوف رفاعه.. ولف الصمت الدار.. قالت :

- ما العمل يا شيخة زهيرة ؟.. هل ينتظر حتى أطلب أنا يده ؟!

نهرتها الشيخة زهيرة فى أمومة وحزم :

- آن لك أن تتعقلى.. فلست صبية طائشة.. ويليق بك الاحتشام يا بنت..

وجاءت أم كريمة.. وعكرتت فى أدوات المطبخ ولم تأخذ شيئا.. ثم رجعت إلى زوجها.. و.. فركت يديها..

قالت الانصارية ، فى صوت يغلفه الوهن.. والفرح :

- يا شيخ عطار.. احضرنا فى هذه المسألة..

- خيرا يا أم رفاعه..

قالت :

- كنت نذرت لاذبحن بقــرة سمينة ان صار ابنى رفاعه شيخا بالأزهر.. والحمد لله.. أعطانا الله مـن فضله.. لكن الباشا أخذ الأرض والدار والمواشى..

قال العطار :

- نشترى بقرة ان شاء الله.. أو نتصدق بثمنها..

وعادت الانصارية إلى صمتها.. والمرض يرهقها.. وانصرف العطار.. قام الشيخ محمد يوصله إلى آخر الحارة..

وعاد الشيخ محمد.. فوقف رفاعه.. يريد أن يقول شيئا لكن الحياء يمنعه.. أخيرا قال : أذهب انا إلى الرواق.. لأبيت هناك..

قال خاله : كيف وهذه دارك..

قالت أمه : كانت لنا دار.. وكانت لنا أرض.. منهم لله الظلمة !..

قال رفاعه : بإذن الله أبنى لك دارا أكبر وأوسع.. وان شاء الله تعود لك أرضك..

قالت أم كريمة - مداعبة :

- يظهر ان الشيخ رفاعه زهق منا..!

نظر رفاعه إلى كريمة بحياء.. ثم قال : يعلم الله يا زوجة خالى مالكم من مكانة غالية فوق رأسى..

و.. غلبه الحرج.. والأسى.. فهرول إلى الباب قائلا :

- يا خالى.. لا أستيطع أن أبيت فى مكان فيه كريمة.

- ولِمَ ؟!.. هى مثل أختك..

قال رفاعه ، وقد ازداد اضطرابه :

- بل أكثر.. اكثر يا خالى. عن إذنكم.

هرول خارجا..

أشرق وجه كريمة وأمها.. قال الشيخ محمد لأخيه :

- إلحق برفاعه.. خذه يبيت عندك يا فراج..

قال فراج وهو يسرع للباب :

- هل اطمأن القلب يا كريمة . ادعوا لرفاعه أن يستقر ليتأهل قريبا.. قولوا.. إن شاء الله..

(٥)

قال رفاعه :

- أصارحك يا شيخى الجليل.. أنا يلزمنى المزيد من المال.. لأبنى دارا تليق بأمى..

نهض الشيخ العطار ، وعاد بكيس نقود.. قال :

- فكرت فى ذلك.. لكننى ترددت.. خشيت أن احرجك .

قال رفاعه ، وهو يأخذ كيس النقود من شيخه ويضعه على المنضدة :

- أصارحك يا شيخى.. انى ما قصدت إلى هذا.. فأنا لا أقبل الاستدانة ولا أحبها فهى هم بالليل وذل بالنهار..

- وهل انا غريب يا رفاعه ؟..

- بل انت أب.. واستاذ.. وراع كريم.. لكن.. هذه هى طباعى.. فأرجوك.. أشر على.. أريد عملا..

- أنت من مدرسى الأزهر..

- لكن الراتب لا يكفى..

- معك حق..

طال الصمت قليلا.. ثم قال العطار :

- تعطى دروسا فى اللغة.. والأدب.. وتحفيظ القرآن لأبناء بعض الأسر الموسرة.. كبار الأعيان يطلبون منى مساعدتهم فى العثور على مدرسين لأولادهم وبناتهم.

- وهل أعلم البنات ؟..

- وهل عندك اعتراض على تعليم البنات والنساء يا رفاعه..

قال رفاعه :

- بل من رأيى أنه « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا.. لحسن معاشرة الأزواج.. فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك.. فإن فى هذا ما يزيدهن أدبا وعقلا.. ويجعلهن بالمعارف

أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج عن معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها.. وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن الأفعال البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة.. »

صاح الشيخ العطار :

- بارك الله فيك.. لكن احذر يا ولدى فأنت تسبق زماننا بكثير..إن رأيك هذا كفيل بأن يقلب على دماغك مشايخ الأزهر والباشا محمد على والدواوين والبلد كلها.. فرويدك.. يا رفاعه.. واصبر.. ودعنا نبحث أمر الدروس المنزلية..

❁ ❁ ❁

اتفق الشيخ العطار مع « طبوظوغلى بك » على فتح مدرسة أو.. كتاب.. لتعليم أولاد وبنات الجراكسة وكبار الأعيان..

قال طبو ظوغلى :

- كتاتيب لتعليم أولاد جراكسة وأعيان.. موافقون حضرتنا.. لكن تعليم بنات مع أولاد.. ممنوع.. شيوخ أزهر يعملوا ثورات..

ضحك الشيخ العطار.. وقال :

- اجعل للبنات « كتابا » خاصا بهم .

قال طبوظوغلى بك :

- ابنتى صافيناظ هانم.. تريد تعليم.. أحضرت لها امرأة رومية.. تعلمها لغـات افرنجية.. اريد تعليمـها لغة عربية.. آيـات قـرآن.. أحداث تاريخ..

قال العطار :

- وعندى من يعلمها.. لكن.. ما رأيك فى تعليم بقية بنات عائلتكم.. وأصحابكم من الجراكسة والأعيان.. اجعل صافيناز هانم تدعو قريناتها ليتعلمن معها.. فذلك يشجعها على الاقبال على الدروس..

سأل طبوظوغلى بك : ومن يكون هذا المعلم.. شيخ عطار ؟..

- هو الشيخ رفاعه الطهطاوى.. تلميذى وأصبح مدرسا نابها فى الأزهر وهو على خلق كريم وأصل عريق..

- اتفقنا.. لكن شيخ رفاعه طهطاوى لازم كمان يعطى الدروس لابننا طبوظوغلى صغير.. وابن أخى مظهر.. وكل أولاد العائلة.. وسنجعل له ترتيبات.. ونخصص لهم حجرة فى قصرنا فى عين شمس..

❁ ❁ ❁

فرح رفاعه.. والشيخ عطار يعطيه كيس النقود ، الذى تركه طبوظوغلى بك.. مقدم أتعاب الدروس..

قال رفاعه :

- أحلم بيوم تكون فيه المدارس متاحة لأولاد المصريين فى كل حى وحاره فى المدن والقرى.. إننا يا شيخنا الجليل.. يجب أن نعلم أبناء الشعب.. وليس أبناء الجراكسة والذوات والأعيان الأغراب فمتى يا ربى.. متى يا شيخنا نعلم أولاد الناس ؟..

قال الشيخ العطار..

- إنى أحاول مع الباشا.. والليلة أنا على موعد للقائه بالقلعة.. لبحث بعض شئون الأزهر.. وكتاتيب تحفيظ القرآن بالريف.. وسأحادثه فى فكرتك يا رفاعه..

- أرجو أن يهديه الله.. ويوافق .

- وأنا أيضا.. أرجو ذلك.. وان كان نظامه يعتمد على تحويل الناس إلى شغيله وأجراء وصنايعيه.. لأنه أصلا غير متعلم فكيف يعرف فضائل التعليم..

❁ ❁ ❁

(٦)

وقف رفاعه فى حديقة قصر طبوظوغلى مبهورا.. بألوان الزهور والأشجار.. والطيور.. و.. كل شىء كان واسعا فسيحا.. عامرا بالزهو والجمال.. قال لنفسه :

- بإذن الله يا أمى.. وأنت يا كريمة.. سأبنى لكما قصرا أكبر من هذا.. وحديقة أجمل من هذه الجنة الجركسية.. اللهم لا حسد..

- « أنت.. يا شيخ أنت.. ما اسمك ؟.. وماذا تريد.. ولماذا جئت.. قل.. تكلم.. والا ناديت لك الحرس والخدم يضربون دماغك ويكسرون رجلك.. »

استدار رفاعه ناحية الصوت الأنثوى المدلل.. المتهافت الذى أثار وجدانه لحظة خاطفة ، فاستعاذ بالله ونظر فوجد وجها بلون أجنبى أبيض مشرب بحمرة زاهية وشعر أصفر وشفاه تنفرج عن ضحكة لطيفة وأسنان بيضاء بديعة ، وأسرع يهبط بعينيه إلى البساط الأخضر من حشائش الحديقة ، واستعاذ ثلاث مرات من الشيطان الرجيم.. ثم ارتعش بدنه كله عندما لمست أنامل الفتاة ذراعه.. فابتعد قليلا وقال بارتباك :

- معذرة يا سيدتى.. اين طبوظوغلى الصغير وابن عمه مظهر..

صاحت بمرح وطيش ودلال :

- إذن فأنت شيخ طهطاوى. والدنا قال لنا انت تجىء.. تعلم حمارين صغيرين.. ها.. ها.. والدنا قال ذلك.. يدللهما بالحمارين الصغيرين.. لكن انت لا تقول هذا.. والدنا يضربكم بالكرباج.. هذه حاجة خاصة بنا.. هما « حمارين صغيرين » .. مدللين.. وأنا يمامة شقراء.. أو فراشة زاهية الألوان.. كل شىء جميل يسمينا والدنا به.. خصوصا اذا كان مزاجه تمام.. هه.. انت تعلم عربى وأشعار.. تعلمنى أنا وبنات قريبات.. تذهب لأخى وابن عمى.. الحجرة هناك على الشمال فاليمين على الجنينة تمام..شيخ طهطاوى..

جرت الفتاة كالفراشة.. بمرح وسعادة.. ثم عادت جريا وانخبطت به.. لاهثة.. لمعت عيناها.. تراجع رفاعه قليلا بسرعة.. قالت وأنفاسها تلفح وجهه الأسمر الذى هزها برجولته ونظراته الذكية :

- نسيت أقدم لكم حضرتنا.. صافيناز.. اسمى صافى.. ناز..

عادت تجرى حول الأشجار.. كالنسمة

خيط رفاعه صدره من ناحية قلبه.. كز أسنانه ، أدمى شفتيه.. عنف نفسه بقسوة :

- ما هذا يا شيخ رفاعه. لم أر أحداً فى مثل هذا الجمال من قبل.. سبحان الله الخالق البارىء المصور.. وأعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم.. استغفر الله.. النظرة الأولى لك.. والثانية عليك.. احنى رأسه.. انحه إلى الطالبين.. وجدهما فى مثل سنه.. يلهوان ويلعبان « السيجة » بقطع من النقود الذهبية..

قال : الدرس يا شباب ؟..

قال مظهر بشراسة :

- اجلس وتفرج علينا.. أتعرف هذه اللعبة المسلية ؟..

قال طبوظوغلى الصغير ، وهو أسمن من ابن عمه وأقصر قليلا :

- تعلمنا أشعار حب.. وجوابات غرام.. نعطيك نقود ذهب كثير.. اسمع شيخ رفاعه.. أنا طبو صغير ، وهذا مظهر ابن عمنا.. لنا قريبات جميلات كثير نريد أن نلعب معهن.. اجعل الدرس لنا ولهن.. قل لوالدنا.. طبوظوغلى بك..

ازداد غضب رفاعه.. قرع المنضدة بعصاه فى عنف.. ارتبك الطالبان.. ثم سخرا منه بإشارات صبيانية ..

قال رفاعه :

- اجلسا.. واسمعا.. وافهما.. جئت هنا لمهمة كنت أظنها يسيرة فإذا بكما تجعلانها ثقيلة.. لكننى ما دمت قد جئت فسأؤديها.. فامتثلا للأمر.. بالتى هى أحسن.. أعدا الأوراق والاقلام.. واكتبا..

بسم الله الرحمن الرحيم.. وبه نستعين.. الدرس الأول :

......

......

......

(٧)

ضحك محمد على باشا حتى استلقى على قفاه ، وفرد رجليه ثم ثناهما.. وداعب ذقنه.. ومقبض سيفه وقال :

- تريد ماذا شيخ عطار ؟.. كنت أظنك أعقل من أن تفاتحنى فى أمر كهذا..

قال الشيخ عطار :

- مولانا صاحب النعم.. حضرتكم تبنى دولة جديدة قوية منصورة بإذن الله..

- وبأمر حضرتنا..

- ومولاى يعلم أن الأمم الناهضة فى أوربا مثل إنجلترا وفرنسا..

وايطاليا.. قامت نهضتها على العلم والتعليم لكل فئات الشعب حكاما ومحكومين بدون تمييز..

- ماذا شيخ عطار.. أنت تخرف..

- علماء الحملة الفرنسية قالوا لنا هذا.. وكان من بينهم علماء هم أصلا من أبناء بسطاء الناس.. أحدهم ابن فلاح وأخر ابن بائع اسماك ودجاج و..

ضحك الباشا بصوت دوى فى ارجاء قاعته بالقلعه.. وقال أخيرا :

- ولو.. فهم فى أوربا أولاد ناس.. اما هنا.. أولاد خرسيس.. ناموس.. جاموس..

- مولانا صاحب النعم.. اسمحوا لنا بالانصراف..

- ماذا شيخ عطار.. اعطنى دماغك شيخنا لأضبط لك أفكارك عنا وعن مصر التى ابنيها.. مصريين شجعان فى الحرب والنزال.. يصبرون على القتال.. النبى قال هم فى رباط إلى يوم الدين.. ثم..

- مولاى صاحب النعم.. التعليم سيوفر الجنود الاكثر فهما لخطط القتال.. ويوفر العمال المهرة لنهضات صناعيات زراعيات.. وصناعات حربية..

قال محمد على باشا : تعليم المصريين ممنوع.. محال.. لأن مصرى إذا تعلم.. تنور.. تنمرد.. ثار علينا.. عطل مشروعات بناء دولة عظيمة.. أقوى دولة فى العالم.. أقوى من فرنسا وإنجلترا.. وأقوى من تركيا.. لكن نبقى مع السلطان تمام..

قال الشيخ العطار :

- دولة قوية بلاتعليم.. كيف يا مولاى..

- جيش قوى.. حكم قوى.. دولة قوية.. لماذا تعليم.. يجعل مصريين متنمردين.. انت غلطان شيخ عطار..

- مولاى الوالى.. الازهر يريد عطفكم واصلاح أحواله.. زيادة رواتب مشايخ.. وجرايات للتلاميذ.. والكتب.. والأوراق والأقلام.. ونريد فتح كتاتيب كثيرة فى ربوع البلاد..

نهض محمد على باشا.. اقترب من الشيخ حسن العطار.. حدق فى وجهه طويلا.. ثم قال بحزم :

- لا تحدثنى عن تعليم فلاحين مصريين.. بعدين أفكر فى كتاتيب بعدين.. المهم الآن.. حضرتنا جناب الباشا والى مصر المحروسة.. أريد جبرتى يعلم.. وعمر مكرم يعلم.. ومصر المحروسة جميعا تعلم.. ان حضرتنا هنا بقوة السيف ولن نترك قلعة الا بالسيف.. ونكسر رقبات أجلاف أوباش.. قل لهم هذا شيخ عطار.

عاد الباشا يجلس غاضبا.. احمر وجهه.. نادى :

- ضابط مقابلات حضرتنا سلم الشيخ حسن العطار فرمانا من حضرتنا انه يصير تعيين شيخ عطار من اليوم شيخ مشايخ الأزهر الشريف.. ويصير كمان إعطاءات زيادات فى الرواتب واحد ريال.. وتحسين جرايات للمشايخ والتلاميذ..

قال العطار :

- أدام الله فضل مولانا.. لكن الأزهر فى حاجة إلى كتب فى علوم الدين وعلوم الدنيا و..

قال الباشا غاضبا :

- شيخ عطار . فرنساوية أخذوا مكتبة رملة بولاق معهم . أنا أبحث مع صديق من ايطاليا شراء مطبعة جديدة لحضرتنا.. بعد وقت كل شىء يكون تمام.. انتهى شيخ عطار.. لكن حضرتنا يقول.. قل لمشايخ الأزهر.. يكون كل شىء تمام.. لا كلام.. لا تمردات.. انتهى شيخ عطار.

(٨)

أسلبت صافيناز رموشها الطويلة على عينيها.. تخيلت الشيخ رفاعه يهديها ورود الحديقة.. تخيلت نفسها بين ذراعيه.. قالت فى لهات :

- انت رجل قوى.. جميل.. ذكى.. صوتك يزلزل جسمى.. يوجعنى.. أنت..

صاح رفاعه غاضبا :

- عزيزتى صافيناز.. من واجبى أن انبهك لأمر الدين الذى يأمر البنات والنساء بالتحشم وإسدال الخمار على الوجوه.. ولايبدين زينتهن ويرخين جلابيبهن و.. هذا الخمار يشف عن وجهك و..

قالت صافيناز :

- لا تغضب.. لا.. اغضب شيخ رفاعه.. اغضب.. فأنت تكون أجمل وأقوى..

خبط رفاعه المنضدة بعصاه ، ونهض منصرفا..

لحقت به صافيناز فى الحديقة.. قالت وهى تكشف خمارها عن وجهها ويطير الهواء خصلات من شعرها..

قالت:

- عفوا شيخنا.. أنا احب أتعلم.. أنت تعلمنى.. لا تغضب..

توقف رفاعه.. أعطاها ظهره مستعيذا بالله من الشيطان قال :

- بشرط أن تكون معك قريباتك.. وولى أمرك.. أى رجل عاقل من أهلك يحضر الدروس.. سأعود غدا ..

وأسرع خارجا إلى الشارع.. فوجد عربه فاخرة بجوادين مطهمين.. وشمشرجى القصر وياور طبوظوغلى بك.. يدعوانه للركوب.. لتوصيلة إلى حيث يشاء.. رفض.. لكن صافيناز ابتسمت له فى رجاء.. وأحنت رأسها فى أدب مفاجىء.. تودعه..

أصر رفاعه على العودة راكبا حمارا استأجره من أحد «المكارى».. وابتعد فاردا منديلا تحت العمامة ليخفف عنه لهيب الحر.. وسيل العرق.. لكنه تساءل :

- وماذا يفرج ضيق صدرى ؟!..

وأضاف فى توسل :

- « يا مفرج الكروب.. يا رب !.. »

(٩)

دخل دار خاله.. أسرع إلى أمه.. قال :

- زوجينى يا أمى الآن.. وليس غدا.. فرغ صبرى يا أمى...

أخذت الانصارية بيده.. أجلسته إلى جوارها.... نادت أم كريمة.. قالت لها :

- احضرى طعاما لرفاعه..

جاءت كريمة هرولة.. صافحته.. كادت تقبل وجهه وجبهته.. أجلستها عمتها إلى جوارها. سعلت الأم.. ناولتها كريمة كوب ليمون.. قال رفاعه:

- أراك ضعيفة يا أمى... أبحث لك عن حكيم مداوى..

قالت الشيخة زهيرة التى دخلت مع أم كريمة ببعض الطعام :

- وهل فى المحروسة كلها أطباء غير الحلاقين.. يلزمنا طبيبات يا شيخنا.. فهل عندك وسيلة لتعليمنا أمور العلاج والدواء..

حدق رفاعه فى وجه التوابة قليلا.. وجدها تزداد صفاء وضياء.. قال فجأة :

- تعرفين طبوظوغلى بك و.. وعائلته طبعا..

قالت : وابنته صافيناز هانم... كانت صبية حلوة.. فى آخر مرة زرناهم مع أبى وابن عمى يوسف كاشف أغا... رحمهم الله جميعا..

- و.. لا.. أردت أن اطمئن إلى طباعهم..

سألت كريمة :

- لماذا ؟.. هل ستناسبهم أم ماذا ؟!..

انفلتت أعصاب رفاعه.. قال :

- اسأل لشأن من شئون عملى يا كريمة.. ثم ما هذه الأسئلة الكثيرة. عن أذنكم.. عفوك يا أمى..

- إلى أين ؟.. والطعام ؟.. وما جئت بشأنه يا ولدى ؟

- ذاهب إلى الشيخ العطار.. عندنا عمل كثير نبحثه..

بهتت كريمة.. تفجرت دموعها.. طبطبت عمتها على صدرها.. قالت:

- اطمئنى يا كريمة.. رفاعه لك.. وأنت له.. المسألة أنه فى ضيق وشدة... قلبى يحدثنى بآلامه.. لكنه زوجك ان شاء الله.. لابد فى عمله شيء يزعجه.. لابد بحثه عن دار يبنى فيها حياته ويستقر.. هذا ما يقلقه.. لكن التوابة قالت لنفسها :

- لابد أنها صافيناز طبوظوغلى.. ولى معها كلام..

(١٠)

قال محمد على باشا :

- شيخ عطار .. كلامك عن تقويه الايمان فى قلوب جنود جيشنا موضوع تمام .. حضرتنا يوافق حالا . . رشح لنا شيخ عطار .. أحد مشايخ نابه .. ذكى .. ليس مكرش .. ولا أهطل .. يكون حازم شجاع لأنه يخاطب ضباط كبار ويعلم جنود همل متوحشين .. وهم شجعان

فى قتال .. ولدنا إبراهيم باشا قال هذا لحضرتنا .. صح ولدنا ... »

قال إبراهيم باشا : « صحيح يامولانا الباشا والى مصر ... جيشكم فى حاجة إلى تقويه الايمان وجنود مصريون ... لا يهابون القتال.. »

قال الشيخ العطار: هذا الواعظ موجود يامولانا الوالى.. فى الأزهر..

– ما اسمه ؟

– الشيخ رفاعة الطهطاوى . واسع العلم والمعرفة ..

– هه .. كم عمره ؟ ..

– نحو واحد وعشرين سنة – وابتسم العطار – وليس اكرش ولا ..

– فاهم انت ولدنا إبراهيم باشا .. فاهم .. وضحك محمد على باشا .. وقال:

– ضابط مقابلات حضرتنا .. شيخ طهطا يحضر حالا .. وأعدوا الطعام لأتغذى مع شيخ عطار .. وولدنا إبراهيم باشا قائد جيش ..

وبعد مدة قال محمد على باشا : عندى أمور كثيرة كبيرة أريد بحثها معك .. شئون دينية تعمل قلق للباب العالى .. وجيشنا نبنبيه قويا..

وضحك محمد على باشا وقال : اعرف ياشيخ عطار إنت لا تحب الكلام فى البولتيكا وتقول أنك بعيد عن أمور السياسة ومشاكل الباب العالى .. هه..هه..

وجاء ضابط القصر .. فى صحبة رفاعة الطهطاوى .. المندهش ..

قال رفاعه .. ونظراته على وجوه الوالى .. وآبنه إبراهيم باشا والعطار :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ثم نظر إلى الشيخ العطار .. عله يفهم سبب احضاره على عجل .. إلى القلعه فى هذه الساعة ..

قال محمد على باشا :

- انت رفاعه طهطاوى ماشاء الله .. يقول شيخ عطار إنك من ذوى الألباب النجباء . سنرى بأنفسنا .. قل شيخ رفاعة : ما هو حكم الاسلام فى الجهاد والدفاع عن الأوطان ؟ .. اجلس أولا شيخ رفاعة .. وأخبرنا..

جلس الطهطاوى وقال : موجها كلامه للوالى ، ولابنه قائد الجيش :

- أما الأمـارة على الجهاد ، فقد تولى الرسول صلى الله عليه وسلم .. بنفسه الأمارة فى غزواته وهى ست وعشرون غزوة ، وقيل انها سبع وعشرون غزوة ، وأما بعثه صلى الله عليه وسلم الأمراء للجهاد فى سراياه ، فكانت سراياه كثيرة ، وأوصلها بعضهم إلى ست وخمسين سرية ، والسرية قطعة من الجيش ، ويقال : خير السرايا اربعمائه مقاتل .. وكان يستخلف على المدينة فى كل خرجة خرجها منها للغزو . من يستحس استخلافه ويعرف مقدرته على رعاية شئون المسلمين وتصريف أمورهم بعدل وحكمة ونزاهة ... كما كان يستخلف على أهله صلى الله عليه وسلم .. وقد ذكر أرباب السير ، أن الرسول الكريم أمر الناس

بالتهيؤ إلى غزوة الروم . وكان الرسول يخفى اتجاه غزواته ومكانها - إعمالا للسرية - إلاهذه فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو .. ليتأهب الناس لذلك . وهذا يعطينا درسا نبويا فى فنون العسكرية الحكيمة . وهو .. تحديد الغزوة .. والاعداد لها .. وتهيئة الجيوش لها .. ثم . إخفاء مكانها وزمانها تمويها على العدو .. ثم استخلاف أعدل الناس فى أمر السكان .. ثم محاربة الاشاعات والأكاذيب التى يطلقها الأعداء »

قال إبراهيم .. بسعادة : عقلك شديد شيخ رفاعه .. تستحق رتبة عسكرية ..

قال محمد على باشا ، صائحا : « بعدين .. لكن أنت عقل عظيم شيخ رفاعه واعظ جيشنا .. حالا .. حضرتنا قررنا .. يكون رفاعه واعظ جيشنا .. وضابط مقابلات حضرتنا اكتب فرمانات سريعات إلى ضباط وعساكر جيشنا بذلك .. وفى حضور ولدنا إبراهيم باشا قائد قوات ..

قال رفاعه : أنا فى خدمة جيش بلادى .. وسأبذل قصارى جهدى.

و.. تبادل رفاعه والعطار نظرات عميقة المعانى :

وقال العطار : نعم الرأى والقرار والاختيار يامولانا .. فلا شىء يقوى الجيوش مثل الايمان القوى بالله .. وبالوطن وبالهدف .. والشيخ رفاعه لديه من ذلك الكثير والوفير.. وسينفع البلاد والجيش بعلمه ومعارفه أن شاء الله .. »

ضحك الباشا .. وأمر بالغداء .. ثم قال لابنه إبراهيم باشا قائد الجيش .

- رفاعه . هدية من حضرتنا لكم ولقواتكم إبراهيم باشا ..

قال إبنه : دام فضلكم ياولى النعم .....

(١١)

طال انتظار ضافيناز لحضور الطهطاوى .. فات الظهر .. والعصر .. اقترب المغرب .. مالت الشمس إلى الغروب .. أحمرت الشمس وسط سماء رمادية .. خلف الأشجار والنخيل .. احمر وجه صافيناز ضيقا .. عيناها مفروستان على باب الحديقة .. على الطريق .. قلبها يدق ..

قالت وصيفتها :

- ياعزيزتى ... هو من الأوباش ..

- لا .. لا .. لا تسبى طهطاوى .. رجل وسيم قوى .. عيونه تطق ذكاء .. شباب ..

- لو كان عنده مفهومية .. ما تأخر فى الحضور .. وعرف أن انشغالك به هو غاية المراد .. فأنت صافيناز هانم ابنة طبوظوغلى بك .. سليلة الحسب والنسب ، وهو فلاح ..

تألمت صافيناز .. نهرت وصيفتها :

- لا تسبى طهطاوى . أنا أحبه وأهواه ..

قالت الوصيفة ، فى إشارة مثيرة :

- ومظهر بك ابن عمك ؟! .

- منحرف .. طبعه شاذ . جلف .. أزهق من كلامه .. وحركاته سخيفة . رفاعه طهطاوى ... أجمل .. أعظم .. كله رجوله ..

تأوهت الوصيفة .. وتلوت وغنت :

- يابدر ياسهم اللواحظ

اسأل على اللى يحبوك

استوحشوا لغيابك

يبتسموا حين يروك ..

وان غبت رادوا حضورك ..

....

....

حضنت صافيناز عمود الشرفه بعاطفه جارفة .. وأخذت تتخيل رفاعه إلى جوارها ... وهمست : غنى وصيفة عزيزة ..

غنى كثيرا ..

....

....

- آه ..

يابدر ياسهم اللواحظ ..

صابوا الشجى فى فؤاده

جُدْ .. له .. بقبلة من فمك

يشفى .. ويبلغ مراده ..

همست صافيناز : آه .. آه ..

غنت الوصيفة :

- أهيف طاف بالكؤوس

وجهه أخجل الشموس

ثغره باسم يسبى النفوس

جمع الشهد والمدام والراح

وأسكرنا غرامه .. غرامه ....* ..

تأوهت صافيناز فى حب جارف .. قالت :

- نذهب لبيت رفاعة ..

ذهلت الوصيفة .. قالت :

- طبوظوغلى بك يذبحنا ..

---

*- راجع : كتاب الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين - من : وصف مصر - لعلماء الحملة الفرنسية - ترجمة : زهير الشاريب - ص ١٣١ -

- أريد رفاعه .. أراه حالا ..

قالت الوصيفة : « مسكينة صافيناز هانم .. لم تر رجالا .. رجالا قبل رفاعه .. كل شباب العيلة حمير إما منسونين.. وإما أجلاف مقرفين ..

- نذهب له حالا ..

- لا نعرف داره ..

- نسأل فى الأزهر .. نسأل شيخ حسن عطار ...

صاحت الوصيفة محذرة :

- أخاف على رقبتى ..

- أريده حالا ..

❊ ❊ ❊

(١٢)

فى ثكنات الجيش بصحراء العباسية ، جلس رفاعه يعظ كبار ضباط أرناءوط .. وصفوف من الجنود والعساكر الأغراب .. نظر رفاعه إلى وجوههم .. وعيونهم الملونة .. وسأل :

- وأين الجنود المصريين ؟ ..

قال ضابط كبير :

- يقومون بأشغال القشلاق.. ينظفون جبخانات.. وأدبخانات.. ويطبخون اليمك و...

قال الطهطاوى :

- أحضروهم ..

- شيخنا هنا نظام عسكر ..

قال رفاعه بحزم :

- قلت أحضروا كافة الجنود المصريين بهذا القشلاق إلى هنا حالا.. ولن أقول شيئا إلى أن يحضروا ..

- لكن شيخ رفاعه .. جنود أوباش وهنا كبار ضباط وعسكر أرناؤود ...

قال رفاعه :

- إذن نعود إلى إبراهيم باشا قائد الجيش .فى القلعة ..

بهت الضابط .. اصفر وجهه .. قال : لا أفندم .. احنا نحضر جنود مصريين حالا ..

ثم أمر صغار الضباط باحضارهم ..

فلما جاءوا .. تأملهم رفاعة فى أسى ممزوج بالفخر .. كانوا شاحبين . مهزولين .. ثيابهم رثة .. مهملة ..رؤوسهم حليقه .. أقدامهم حافية .. لكن الرجولة فى عيونهم وفى قلوبهم .. قال رفاعة :

- اهلا بطليعة جيش الأمة .. أنتم ياجنود مصر .. وحراسها .. أعدوا .. أنفسكم جيدا .. واصبروا ..

ثم نادى كبير ضباط وأمره :

- لن أغادر هذا القشلاق، الا بعد أن أطمئن بنفسي على حسن معاملة الجنود المصريين و.. اصرفوا لهم ملابس جديده، ومراكيب.. وأغطية للرؤوس.. وضاعفوا لهم كميات الطعام، وأعطوهم حقهم فى الاجازات.. فهم ليسوا عمال سخرة هنا، بل هم درع للوطن.. وليس أنتم.. فهم الذين سيحاربون ويخوضون الوغى.. فكيف يقاتلون وهم جوعى ومهانين.. سأخاطب إبراهيم باشا فى القلعه فى هذا الأمر بنفسي..

سأل كبير الضباط :

- هل شيخنا.. كبير مفتشين على الجيش ..

- أعرف أنني عينت من جناب الوالى لأكون واعظا للجيش ولست مفتشا عسكريا .. لكن ما الوعظ : تقوية الايمان بالله وبالرسول وبالاسلام .. وكيف أقوى إيمان الجنود وهم جوعى .. ويعملون بنظام السخرة والاستعباد ..

قال الضابط :

- حاضر أفندم .. تنفذ جميع طلبات شيخ رفاعه .. بعد الوعظ إن شاء الله .

- إذن سأعجل بالموعظة .. اليوم .. ولنا عودة ..

❋ ❋ ❋

« .. وفى يوم من أيام شهر أبريل .. بعد خمسة منه سنة ١٨٢٢، توفى السيد عمر مكرم فى داره بمصر القديمة .. أثر النبى .. وشارك فى

دفنه نفر قليل بينهم العطار والطهطاوى وخاله الانصارى.. وأحزنتهم فداحة هذه الخسارة برحيل نقيب الأمة دون أن تشيعه عموم الرعية ..»

....

❁ ❁ ❁

(١٣)

دهش الشيخ العطار ، عندما أخبره خادمه :

- الشيخة زهيرة تريد رؤيتك ..

أسرع إليها فى قلق :

- خيرا .. هل جرى شىء للشيخ محمد الانصارى أو أهل منزله ؟..

قالت زهيرة :

- جئت لأمر يحرجنى.. لكن لم أجد غيرك ياشيخنا الكبير أبوح له. فأنت فى مقام الوالد لنا جميعا .. والشيخ رفاعه تلميذك ، ولك عليه تأثير ..

- هل جرى له شىء .. أو .. تكلمى ياابنتى .

- لا .. الحمد لله هو بخير حال .. كما نسمع .. أو نراه بين الحين والأخر .. فهو دائما عنا مشغول .. وإذا جاءنا فهو حائر مهموم ..

- أشغاله كثيرة .. وزادت الاعباء على كاهله ..

قال العطار : « أفصحى زهيرة .. »

قالت : ابنة طبوظوغلى .. وهى جريئة مدللة .. شأن كل بنات الشراكسة ..

قال العطار : فهمت يا زهيره .. دعى هذا الموضوع لى .. لكن .. احذرى أن تعرف ابنتنا كريمة أى شىء .. عودى أنت .. واطمئنى ..

و.. انصرفت زهيرة .. داعية للشيخ العطار .. لكنها خارج منزله صدمت بوجه صافيناز .. تهبط من عربتها الكارتة المذهبة .. زاد غضبها وفكرت أن تواجهها وتؤدبها و.. لكنها احتراما للشيخ العطار .. ولرفاعه.. وللأنصارى .. أسرعت مبتعدة.. وهى ترمق صافيناز بنظراتها فتأكدت من زيادة حسنها وخطورتها على رفاعه .. وكريمة و....

❋ ❋ ❋

جلست صافيناز .. مرتبكه أمام الشيخ العطار وإلى جوارها وقفت وصيفتها :

– خيرا ياابنتى ؟..

– أريد أعرف دار شيخ رفاعه طهطاوى .. والدنا طبوظوغلى بك أخبرنا. أنكم قدمته لنا ليعلمنا اللغة العربية و.. إنك تقريبا ولى أمره..

قال العطار :

– ياابنتى .. أريد أن أحدثك قليلا .. فلقد ساقك الله إلينا وأنا أفكر فى أمرك أنت بالذات ..

- أمرنا نحن شيخنا .. نريد رفاعه .. يعلمنا اللغة العربية و.. هو منذ أيام لا يحضر إلينا .. جئت أشكوه لتغيبه عن دروسنا ..

- ياابنتى .. الدين النصيحة ولا حياء فى الدين .. صارحينى بما بينك وبين رفاعة ..

قالت الوصيفة الواقفة إلى جوار سيدتها : «تحبه بجنون يامولانا»

بهت الشيخ العطار من جرأة الوصيفة ووقاحة المسألة .. لكنه تمالك نفسه ، وقال :

- ماذا أسمع ؟ .. أصحيح هذا ياابنتى :

.. جف حلق صافيناز ..

زاغت نظراتها قليلا .. أخيرا قالت :

- صحيح شيخنا الكبير ..

قالت الوصيفة :

- لا بد أن الشيخ كتب لها حجابا وسحر لها بالعشق والغرام ..

هتف العطار - برغمه :

- «تحشمى يابنت .. والزمى حدود الأدب ..»

انكمشت الوصيفة خلف سيدتها التى ارتجف جسدها .. وشدت خمارها جيدا على وجهها وسالت دموعها ..

قال العطار :

- ياابنتى سأعلمك شيئا أرجو الله أن ينفعك ..

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : «الحياء من الايمان والايمان فى

الجنة ، والبذاء من الجفاء .. والجفاء فى النار .. وما كان الفحش فى شىء الاشانه ، وما كان الحياء فى شىء إلا زانه ... وإذا لم تستحى فافعل ما شئت ..

وقال أيضا : «الحياء شعبتان من الايمان .. والبذاءة شعبة من النفاق.. وحذرنا - ياابنتى - من الفجور .. فالفجور يجعل الفاجرين فى النار .. «إن الفجار لفى جحيم » ..

- والحياء ياابنتى من سمة أهل المروءة والكرامة .. والتوقح والإفصاح عن الافعال والتفحش فى الاقوال ليس من الحياء .. والتفحش فى السلوك والتوقح فى العواطف هما من سمة أهل الفجور .. وطمعك فيما ليس لك يجعلك جريئة على أستعمال الوقاحة والسفة مع الناس.. ويبلغ الفجور أقصاه عندما تنغمسى فى الفواحش الخفية والظاهرة . فاتقى الله ياابنتى ، وتوبى إليه ، إنه غفور تواب .. وابعدى عن الهوى والغرض حتى لا تكونى من شر العباد قبحا ومسخا وفجورا .. وتمسكى بحبائك وإيمانك ليحسن أدبك ويزيد الله فى حسنك وجمالك ويرزقك الله بابن الحلال الذى يستحقك ويرعاك ..

❄ ❄ ❄

بكت صافيناز فى حزن شديد ..

قال العطار : الشيخ رفاعه له عروس .. بينهما خطبه وقريبا سيتم الزفاف..

تأوهت صافيناز فى قهر هزها .. طيب العطار خاطرها .. قال :

- و.. كما أن والدك صديقى الحميم .. وإن كان لى مطلب أخير .. حافظى على الصلاة .. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. والبغى ..

شهقت صافيناز ..بكت فى حزن شديد .. أسرعت وصيفتها تطبطب عليها وتمسح دموعها .. وقال العطار :

- «والآن عودى لدارك ياابنتى .. حفظك الله ورعاك ..»

نهضت صافيناز.. أحنت رأسها أمام العطار فى خجل ..ثم انصرفت..

❁ ❁ ❁

بعد أن انتهى رفاعه من شرح دروسه لتلاميذه .. ذهب إلى استاذه.. جلس صامتا وأمامه الكتب يقلبها فى شرود .. سأله الشيخ العطار :

- قال : «أما آن لك يارفاعه أن تقترن بابنة خالك ؟..

قال : تأتى معى ياشيخى .. لنطلب يدها من خالى .. الليلة بإذن الله ..

- على بركة الله ..

قال رفاعه : اريد أن أشهدك على هذه الحجة .. ياشيخى .

أخذ منه الشيخ العطار الورقه وقرأها : «أقر أنا رفاعه بدوى رافع الطهطاوى بأن من حق زوجتى كريمة بنت الشيخ محمد الانصارى ، أن تنال الطلاق -إذا طلبته - إذا تزوجت عليها.. لا قدر الله.. »

وقع العطار شاهدا على الوثيقة .. وقال : أنت تسبق زمانك يارفاعه وستفعل الكثير لترقية حال المرأة وحماية حقوقها الزوجية ...

قال خاله : أوافق - وقرءوا الفاتحة :

قال رفاعه : ادع لنا ..

قال خاله : اللهم اجعلها خطبة مباركة إن شاء الله ..

قال العطار : يجب أن تتعجل بناء الدار الجديدة .. وتعد نفسك للزواج .. فى القريب ياشيخ رفاعه ..

قال : بإذن الله .

زغردت الأنصاريه رغم ضعف صحتها .. وسالت دموع الفرح .. وتذكرت الحاج بدوى .. تمنت لو أنه كان معهم يشهد هذه الفرحة وهذه السعادة قالت : رحمه الله .

وزغردت التوابه ..

واضطربت كريمه وشحب لونها من شدة الفرح ..

(١٤)

عقد محمد على باشا ، مجلس النظار والأعيان ..وإلى جـواره ابنه إبراهيم باشـا .. ودعا الشيخ العطـار ، والشيخ رفـاعه لحضور الاجتماع.. قال :

- كلمتنا كثيرا شيخ مشايخ عن تعليم مصريين ..

قال الشيخ العطار :

- «التعليم هو أساس النهضة العظيمة التى تقيمها يامولانا.. رعاك

الله وسدد خطاك إلى ما فيه خير العباد ورقى البلاد فى عهدكم السعيد.. وقد عكف زميلى الشيخ رفاعه على البحث وأعد حجة التعليم لتقديمها لكم

قال الباشا :

عظيم.. نسمع شيخ رفاعه .. لكن اسمع .. لا تطلب .. لا تطلب مدارس .. مدارس يوك .. المصرى إذا تعلم تنمرد وعمل لنا عكوسات.

قال رفاعه :

- «التعليم من الحاجات الاساسية للبشر .. والتعلم هو الوسيلة العظمى التى يكتسب بها الانسان معرفة مايجهله بالكلية ، والتعليم جزء من التربية المعنوية التى هى تهذيب العقل وترويض الذهن ، وهذه التربية المعنوية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : تربية النوع البشرى ، يعنى تربية الانسان من حيث هو إنسان .. يعنى تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية ..

القسم الثانى : تربية أفراد الانسان ، يعنى تربية ..

قال الوالى : «أوجز شيخ رفاعه .. أوجز .. وقل لى : تريدون تعليم مصريين عشان إيه ؟..»

قال : «لتقوى الأمة .. ويتقوى الجيش وتتحقق الـ .....

قال الوالى : « وكيف يكون التعليم فى ناس همل .. همج ..

قال رفاعه : تعرف يامولاى أن أهل مصر المحروسة كانوا من زمن سحيق .. أهل علم.. والأهرامات وأبو الهول والمعابد خير شاهد على القوة وعلو الهمه.. ولكن جاءت عصور الظلام.. وآن أن ترفعوا الجهل عن كاهل الرعية ..

قال الوالى .. كيف ياشيخ رفاعه .. قل .. وأوجز .. »

قال رفاعة : فلا أقل من كتاب بكل قرية .. لتحفيظ القرآن وتعليم مبادىء اللغة والنحو وأصول الحساب ..

قال الشيخ العطار :

– وبذلك تستنير الأمة .. وتزيد الهمة ..

قال إبراهيم باشا :

– لكن مشايخ أزهر .. كيف نسوس جنود مصريين إذا علمناهم .. لن يطيعوا أوامر ضباط أرناؤود .. يحصل تمردات وعكوسات ..

نظر العطار إلى رفاعة .. فاسرع يقول :

– وقانا الله شر جميع العكوسات . الأمر ياجناب الباش الوالى .. وياجناب الباش قائد الجيش .. أن التعليم يجعل الجندى يفهم ما تشرحه له من علوم الجيش .. إن التعليم يجعل الجندى يفهم ما تشرحه له من فنون القتال وخطط التدريب .. ويسهل الطريق أمام صناعات الطوبجية والذخيرة وخلافه من شئون العسكرية ودواوين الحكومة ..»

قال الوالى : اجلس ساكت قليلا اجلس ساكت يا رفاعه .. أريد تفكير كبير حضرتنا يقول .. نريد مصريين يعملون نهضة لأن حضرتنا نؤسس دولة كبيرة عظيم .. وجيش كبير يعمل فتوحات كبيرة عظيم .. وحضرتنا قرر .. ولكن لازم يبقى جهال همل يزرعون . ويعملون أعمال سخرة .. تعليم لصبيان قليل .. قليل .. انتهى ..»

أشرق وجه الشيخ العطار ..

وقال رفاعة : «قليل خير من لاشىء .. نحمد الله .

قال الباشا :

- شيخ عطار .. وشيخ رفاعة .. انصراف لأشغالكم .. نحن عندنا خطط كثيرة نبحثها مع اعضاء الديوان وولدنا إبراهيم باشا .. تشكرات .. اسمع شيخ رفاعة .. تعليم كتابة وقراءة للصبيان .. مش لإناث .. وقليل قليل ... ها .. ها ..

❋ ❋ ❋

خرج الشيخان إلى ساحة القلعة ، وركبا إلى الأزهر والفرحة تجتاحهما .. قالا : «الحمد لله » .. أخيرا وافق الوالى !..

وقال العطار : نسأل الله أن يتم نعمة التعليم على مصر المحروسة فقد طال سجنها فى ظلمات الجهل ..

قال رفاعة : ونسأل الله ألا يرجع الوالى فى قراره .. وتحدث عكوسات .. اللهم أمين ! ..

وفى الأزهر بدأ رفاعه والعطار .. فى وضع منها ج لتدريس قواعد النحو والصرف « ومبادىء الحساب » لتلاميذ الكتاتيب .

(١٥)

« أصدر الوالى محمد على .. مرسوما واجب التنفيذ يمنع طبع وتداول كتب عبد الرحمن الجبرتى .. ويمنع منعا باتا تناقل ما يسجله من أخبار طوال الزمن .. »

ذرف الجبرتى دموعه . وفرد يديه.. بحث عن أقلامه وأوراقه .. سجل كلمتين : « قضى الأمر .. قضى الأمر .. »

و.. أسند رأسه على ذراعيه .. وأسلم الروح .

مات الجبرتى ! ..

قال رفاعة : لاحول ولا قوة الا بالله . لقد ارتاح شيخنا الجليل من الكرب .. رحمه الله .. وهرول . مع الشيخ العطار إلى دار الجبرتى فى بولاق .. وقاما بالواجب نحو الشيخ الجليل .. حافظا على كتبه فى مكان أمين حتى لا تصل إليها أيدى الوالى محمد على باشا .. أو أيدى أعوانه من شرار القوم ..

ثم .. بكياه مع عامة الشعب .. فى صمت .. مع تلاوة أى الذكر الحكيم ..

و.. وقف الشيخ العطار يؤبنة بكلمات تنبـع من قلبه الحزين .. قال :

– شاء الجبرتى أن يزداد انعزالا وأن يقف موقفه .. نافثا مرارة فؤاده فى قلمه ضد الوالى محمد على باشا ومظالمه .. ودفاعا عن عامة الناس لتخفيف الكرب عن كواهلهم .. وابتلى فى أواخر أيامه بفقد ابنه قتيلا فبكاه حتى فقد بصره ومات تاركا صغارا اكفلهم وهم من الآن أولادى والله يرعانا جميعا.. وسينالون شيئا من نعمة محمد على..» *

❊ ❊ ❊

قال رفاعة : لنجعل من رحيل الجبرتى .. ومن قبله السيد عمر مكرم .. وغيرهم من عقول الوطن حافزا يجدد من عزائمنا .. ويشجعنا ياشيخنا . على تكرار المحاولات مع محمد على باشا .. لكى يسمح بتعليم المصريين ..

---

* كتاب : محمد على باشا – شفيق غربال – ص ٦٨ –

قال العطار : «نذهب إن شاء الله إلى القلعة .. ونقابله ».

فى القلعة .. ومرة .. بعد مرة .. قدم رفاعة والعطار الرأى بعد الرأى .. بأهمية التعليم .. وضرورة إرسال البعثات .. والوالى يقول فى ضيق :

- « نبحث الأمر .. نفكر كثيرا .. »

❊ ❊ ❊

فكر رفاعه فى ترك عمله واعظا للجيش .. ومدرسا فى الأزهر.. ضاق مما يراه ويسمعه ويتنفسه مع عامة الناس ليلا ونهارا من جهل الناس وتخلفهم وكثرة مشاحناتهم ومعاناتهم من الضرائب والاتاوات وعصابات الشطار ولصوص البيوت والحوانيت .....و....

قال : ضاق صدرى ياشيخنا .. أفكر فى العودة بأمى إلى طهطا .. أعلم الناس فى مسجد أبى القاسم .. وانتهى الأمر لآخر العمر ..

قال العطار : خطأ وأى خطأ يارفاعة .. ما أعددناك بفضل الله وما سهرنا عليك لتهرب إلى طهطا وتترك ما تصلح له من مهمة لنجدة هذه الأمة . اصبر يارجل .. تشبث بكل السبل والوسائل .. افعل مثلى.. أبتلع الكثير لهذا الوالى .. انادى يامولاى .. وياولى النعم .. لأصل إلى دماغة .. عله يلين ويلتفت إلى ترقية شأن الناس والأمة . إننا نركب الصعب .. لكنها وسيلة إلى غاية .. نوع من المقاومة .. مقاومة الظلم ومحاولة تحويله إلى عمل طيب .. وها نحن حصلنا على بعض الكتاتيب .. وبعض اصلاحات فى شئون الأزهر .. وأول الغيث قطره ..

- نقابله لأخر مرة .. لنصل إلى حل بشأن التعليم .. فكلام الفارابى عن المدن الفاسقة لجهل أصحابها وضلال مفكريها وحكامها يؤرقنى .

- نقابله .. وإن شاء الله سنجد حلا معه .

❊ ❊ ❊

(١٦)

« .. وفى يوم الجمعة ، الذى هو ثامن يوم من شعبان سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٦ - م .. أصدر محمد على باشا والى مصر قرارا بسفر أول بعثة من شباب مصر إلى باريس .. لتلقى العلوم الحديثة من علوم طبيعية وعسكرية وغيرها من المعارف . وبعد تشاور مع الشيخ حسن العطار .. قرر الوالى أن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوى إماما واعظا لهذه البعثة الأولى .. »

❊ ❊ ❊

دق قلب رفاعة .. اندفعت الدماء إلى دماغة .. قال : وأمى .. والدار الجديدة .. وكريمة ؟ »

قال خاله الشيخ محمد :

- لا تشغل بالك ياولدى . أنا بعون الله أكمل لك دارك .. وأرعى الانصارية .. وأما كريمة فهى تنتظرك منذ عامين ..و .. لا بأس من خمس سنوات أخرى .. وضحك ..

قال العطار : تذكر دائما أن تسأل عن كل شىء غريب وعجيب تراه وافهم تركيبه وتشغيله وأغراضه .. وسجل كل ذلك فى الأوراق ..

تذكر أن مصر المحروسة تنقصها كل المعارف والعلوم الحديثة .. فانقل إلينا كل ما تراه وما تسمعه من علوم وثقافة، وازرع فى وجدانك واحفظ جيدا كل شئ.. لأنك بعون الله ستقوم بزراعة بذور ثورة فكرية جديدة تخرج بمصر من ظلام العصور الوسطى إلى عصر النهضة الحديثة..

اهتز جسد رفاعة .. من ثقل المسئولية .. قال :

– ما سافرت إلا إماما واعظا لبعثة الانجال .. وليس لتعلم أى علوم أو معارف .. ماذا أفعل .

قال خاله : تتعلم أنت ..

– واللغة الفرنسية ،..

– تعلمها يارجل .. علم نفسك .. ناطح الصعاب والمخاوف .. وسلح نفسك بالايمان بالله .. وبحب هذا الوطن .. وستجد أن كل صعب هينا ميسورا بإذن الله ..

❊ ❊ ❊

مسحت الانصارية دموعها .. قالت :

– اعادك الله سالما غانما من بلاد الغربة يارفاعة ..

فانحنى يقبل يديها .. وقبل رأسها .. وضمها إلى صدره .

ثم ....

قبلت التوابه جبهتة .. ودعت له .. ودموعها تلمع فى عينيها ..

ثم ...

احتضنه خاله الشيخ محمد ، وخاله الشيخ فراج ..والشيخ حسن العطار .. وصحبوه إلى مرس رملة بولاق .. حيث كان إبراهيم باشا بنفسه فى وداعهم ..

وأوصاهم كثيرا بالجد والاجتهاد فى طلب العلم اللازم لبناء الدولة الحديثة .. وقال :

- نجهز البلاد لتكوين الامبراطورية المصرية العظيمة فى ظل محمد على باشا .. وأرسلناكم لتعودوا لنا بحاجتنا من العلوم الحديثة فى كل الفروع .. فإياكم واللهو واللعب .. والاهمال هنا جناية عسكرية .. »

ثم استدار للشيخ رفاعة .. وقال :

- كن حارسا أمينا على هؤلاء الشبان .. »

قال رفاعة :

- «الله هو خير حافظ .. »

و..ركبوا زوارق صغيرة وتوجهوا إلى الاسكندرية ..

بعد رحلة على ظهر النيل المبارك أربعة أيام

و..«عصر يوم الأربعاء ، خامس من شهر رمضان ، امتطينا سفينة حرب فرنسارية .. لا تغادر فى فؤاد الانسان رعبا .. وكان مجراها يوم الخميس ، سادس يوم من شهر رمضان المبارك .. إلى مرسيليا »

❋ ❋ ❋

الجزء الرابع

يوميات ..

صائد عروق الذهب

(١)

* تخليص الابريز فى تلخيص باريز*

* من يـوم الخميس ، سـادس يوم من شـهر رمضان سنة ١٣٤١ هـ - ١٨٢٦ م

- والفلك تجرى فى البحر بأمره .

- سبحان الله العظيم .

«.. وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا .. وكنت قبل ركوب البحر.. عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء إلى اسلامبول ، من تجرع حسوات عظيمة من ماء البحر المالح .. وقال أنه يدفع ألمه .. فكان الواقع أنه لم يحصل لى ألم ، على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منه بمجرد السفر وحركة السفينة .. وربما صحت الأجسام بالعلل ..

وبعد أربعة أيام عصف الريح ، وتموج ماء البحر وتلاعب بالأشباح والأرواح.. فلازم أكثرنا الأرض، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض.. »

قال صاحبنا العلامة الصفتى :

- «خاطر من ركب البحر .. وأشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة .. وعلى رأى ابو نواس » الذى قال هازلا :

رأيت جميــع الهـــــائلات محيطة

بوطيى لأجل الحمــل جـــارية البحر

فأقسـمت عمــــــرى لاركبت سفينة

ولا سـرت طول الدهر الا على الظهر.

❁ ❁ ❁

ورغم ما أنا فيه من هول وخوف ودوخه .. اعتمدت على الكريم وقلت لأصحابى : « ادعوا بدعوة ذى النون إذ دعا الله وهو فى بطن الحوت : لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ...فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له .. »

❁ ❁ ❁

«وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام .. وصار يزور غبا .. »

« ..ومما يستحسن فى طباع الافرنج ، دون عداهم من النصارى ، حب النظافة الظاهرية ، فإن أهل المركب التى كنا فيها يحافظون على تنظيفها واذهاب الوسخ ما أمكن .. حتى أنهم يغسلون مقعدها كل يوم

ويكنسون غرف النوم كل يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشممونها رائحة الهواء .. ويزيلون أوخامها .. مع أن النظافة من الايمان وليس عندهم منه مثقال ذرة ... «على عكس جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به «بعض» « مصر من الوخم والوسخ » .. وقد مررنا سابع يوم من سفرنا ، على جزيرة كريث .. ورأينا على بعد حيلها الشامخ المسمى عند اليونان آبدا .. الشهير بأمور غريبة فى تواريخهم . ثم فى اليوم الثالث عشر منه رأينا جزيرة سيسيليا - صقليا - ولخصبها كانت تسمى «شونة رومه».. ورأينا بها جبل نار . يخرج منه بالنهار دخان ، وبالليل لهب.. »

❋ ❋ ❋

«وفى اليوم الخامس عشر رسينا على مدينة «مسينه ». ولم نخرج من السفينة أبدا لأنهم لايمكنون من يجىء من البلاد الشرقية إلى بلادهم أن يدخلها إلا بعد «الكرنتينة » «الحجر الصحى » - وهى مكث أيام معلومة لإذهاب رائحة الوباء .. ولكنهم يجيئون الانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن ... وقد تزودنا بما احتجنا إليه من الفواكه والخضراوات والمياه العذبة .. إلى آخره .. وأقمنا «بموردتها » - مينائها - خمسة أيام .. وقد سمعنا بها أصوات النواقيس مدة أقامتنا .. »

« .. وقد صنعت فى ليلة من الليالى مقامة ظريفة . مضمونها ثلاثة معان - الأول : المجادلة فى أنه لامانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة ، مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة : - «وتذكر وجه كريمة ..التى أجل عرسها لحين يعود :

أصبو إلى كل ذى جمال .. ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب ... وانما شيمتى العفاف ..

❊ ❊ ❊

والثانى : سكر المحب من معانى خمر عينى محبوبه ، واستغنائه عن الراح براحته .. وأنشأت في ذلك قولى : « .. وتذكر وجه صافيناز طبوظوغلى وهى ترنو إليه .. فى حديقة قصرها .. »

«قد قلت لما بـدا والكأس فـــى يده ∴ وجوهر الخمر فيه شبه خديه

«حسبى نزاهة طرفى فـى محاسنه ∴ ونشوتى من معانى سحر عينيه وليس هنا محل بسط الكلام . أكثر من ذلك ! ...

❊ ❊ ❊

« وفى اليوم الثالث والثلاثين ، رسينا قرب مرسيليا ، فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما ، وقد تأخرنا كثير ! بلعب الرياح ، ولولا ذلك لوصلنا فى أقل من هذه المدة بشىء يسير .. »

❊ ❊ ❊

(٢)

فى مدة إقامتنا فى مدينة مرسيليا :

« .. نزلنا - فى موردة مرسيليا - من سفينة السفر فى زوارق صغيرة .. فوصلنا بيتا خارج المدينة معد «للكرنتينة » على عادتهم من أن من أتى من البلاد الغربية لابد أن «يكرتن » قبل أن يدخل المدينة.. وقد وقعت محاورة فى إباحة «الكرنتينه» بين العلامة «الشيخ محمد

المناعى» التونسى المالكى المدرس بجامعة الزيتونة ..و مفتى الحنيفية «محمد بيرم » المؤلف عدة كتب فى تاريخ دولة بنى عثمان » .. وقال الأول بتحريم «الكرنتينة »

وأباحها الثانى ..و ..

دخلنا جميعا إلى «الكرنتينة» لا للفرار من قضاء الله كما قال الشيخ «المناعى» التونسى .. وإنما لدرء خطر المرض عن النفس وعن الغير....

وما أحوج مصر المحروسة لمثل هذه. الكرنتينا- فما أكثر الاغراب الذين يدخلونها .

❊ ❊ ❊

« .. وكانت بعض النسوة الفرنسيس .. يشاركن فى العمل والعلاج وهن مهذبات غاية التهذيب لكن الاحراج كان بسبب ثيابهن وماتكشفة من صدورهن وسيقانهن ...و

«.. وأتمنى حصول مايلى فى مصر المحروسة لنفعه العظيم للعباد والبلاد.. ويجب الأخذبه.. فهو من الأمور الصحيحة.. ورقى المدنية. »

« .. إن هذا البيت الذى كنا فيه للكرنتينا متسع جداً ، به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فيه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها وامتلائها بالرياض والحياض ، إلى آخره ، ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على

الأرض ، فضلا عن الجلوس بالأرض .. ثم مدوا السفرة للفطور .. ثم جاءوا بطبليات عالية ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية «وجعلوا قدام كل صحن قدحا» من القزاز وسكينة وشوكة ومعلقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء و.......

وفى الليل : أحضروا لنا «آلات الفراش» والعادة عندهم أنه لا بد أن ينام الانسان على شيء مرتفع عن الأرض - سرير - .

وبدأت أشغل نفسى بتعلم تهجى اللغة الفرنسية .. وحمدت الله لتقدمى فى الابجدية الفرنسية .. لدرجة أننى بدأت أفهم بعض كلام الفرنساوية ... ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما ، لانخرج منه أبدا ، غير أنه متسع جدا ، وفيه حدائق عظيمة ومحال متسعة للتماشى فيها والتنزه فى رياضها... ومن هذا البيت ركبنا العربيات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع .. وسرنا بها إلى بيت فى المدينة ، لكنه فى حواشيها .. ضواحيها ... من القصور المصنوعة بحدائقها - وكل بلادهم وكل بيوتهم تكثر بها الحدائق .. وفى كل مكان .. وهذا منظر بديع .. ويجب عمل حدائق كثيره فى مصرنا.. ومكثنا منتظرين التوجه إلى مدينة باريس ... ومدة مكثنا فى هذا البيت ، كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد - مرسيليا - وندخل بعض القهاوى ... والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة ، إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق الا بالغناء - الثراء - التام .. وأثمان ما فيها غالية جدا ، فلا يدخلها الا أهل الثروة ، وأما الفقراء فإنهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو

الخمارات والمحاشش .... وقد «لاحظت » أن مرسيليا تشبه فى حالها مدينة الاسكندرية .. والفرق بينهما : اتساع السكك والطرق - هنا .. وكثرة المقاهى - وبهذه القهاوى أوراق الوقائع اليومية - أى الصحف - والعجيبة هنا أننى رأيت امرأة تدير المقهى .. وأن القهوجية امرأة .. وهذا مالايحصل أبدا فى مصر المحروسة ....

❁ ❁ ❁

وفى الدخول إلى باريس :

ثم سرنا فى عربات تجرها الخيول من مرسيليا إلى ليون إلى باريس ومسافتها ١٩ فرسخا .. وسط الحقول والبيوت والحدائق الغناء .. وهطول الأمطار الوفيرة .. ودخلنا باريس صباحية اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا .. وقد مررنا بقرى كثيرة .. وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخضر .. عظيمة الأبنية .. مزينة بالأشجار .. وبالجملة: فالقرى مسلسلة متصلة ببعض غالبا .. خصوصا مع جد السير .. حتى أن الانسان ليظن الا أنه فى بلدة واحدة ..

«ثم أن الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة ، أن جمال النساء وصفاء ابدانهن أعظم .. غير أن نساء الأرياف أقل تزينا .. انتهى »

(٤)

فى دخول باريس ، وذكر جميع ما شاهدناه ومابلغنا خبره من أحوال باريس ، وهذا هو الغرض الأصلى من وضعنا هذه الرحلة فى كتاب..

«نزلنا فى بيت فسيح فى شارع «كلونى»».. فى أيام محمد على باشا ونابليون الثالث

واعلم : أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس.

«باری ..» .. وفيها قلت :

«لئن طلقت باريسا ثلاثا .·.فما هذا سوى لو صال مصر »

«فكل منهما عندى عروسى .·. ولكن مصر ليست بنت كفر »

❁ ❁ ❁

وقلت أيضا :

«لقد ذكروا شموس الحسن طرا

وقال أن مطلعها بمصر

«ولكن لو رآها وهى تبدو

بباريس لخصوها بذكر

❁ ❁ ❁

«وأهل باريس ، يهتمون جدا ، بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات ، ولا يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلا .. بل يحبون دائما معرفة أصل الشيئ والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة .. كل انسان على قدر حاله .. فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الانعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة .. «والكلام لك ياجارة .. فما أحوجنا إلى هذا فى مصر المحروسة ..»

«واعلم : أن سائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب ، حتى

الصنايع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره ، .....

❁ ❁ ❁

«ومن حسن خصالهم : إنهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم .. ومن خصالهم : محبة الغرباء .. والميل إلى معاشرتهم .. ومن خصائصهم الرديئة ، قله عفاف كثير من نسائهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة ..

❁ ❁ ❁

(٥)

فى تدبير الدولة الفرنساوية : (وهو مطلوب لحكم بلادنا المصرية مع مراعاة علومنا الشرعية الحتمية)

« ولنكشف الغطاء على تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر : فالملك لا يحكم إلا لتنفيذ قوانين لصالح الرعية ، ويعاونة أهل «شمبر دوبير» – أو ديوان المشورة الأول.. ثم ديوان رسل العمالات.. أو : نواب الأمة ، ويحامى عن الرعية ويحمى حقوق كل الأمة ويحاسب الملك والوزراء .. كما أنه يحاسب أقارب الملك. والملك صاحب قوة لكن بشرط رضاء تلك الدواوين ورضاء رعيته ...

واعلم : أنهم فى فرنسا يعملون انتخابات واختيارات . وكل من يرى فى نفسه القدرة على خدمة البلاد والعباد يرشح نفسه ليختار الناس أصلحهم لديوان مجلس النواب

واعلم : «أن لاسلطان الا برجال ، ولا رجال بلا إيمان ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة بغير عدل .»

واعلـم : « ان سلطـان الملـوك - والحكام على أفعال الرعية .. لا على قلوبهم ! ..»

واعلم : « أن أبلغ الأشياء فى تدبير مملكة تسييرها بالعدل .. وحفظها من الخلل ..»

وقيل : « إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع .. إن الحاكم المولى إذا كلف المحكوم مالا يطيقه ، فقد أقام عذره فى مخالفته ... وفى ديننا الكريم : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » صدق الله العظيم ..

❄ ❄ ❄

(٦)

الكلام على حق الرعية المنصوص لهم :

«سائر الرعية الفرنساوية مستوون قدام الشريعة.. يعطون من أموالهم، بغير امتياز، شيئا معينا لبيت المال ، كل إنسان حسب ثروته، وكل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت ، وذات كل واحد منهم يستقل بها، وتعمق الدولة حريته ، فلا يتعرض له انسان ، الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة وبالصورة المعينة التى يطلبه بها

الحاكم ، وكل إنسان موجود فى البلاد يتبع دينه كما يجب ، ويمنع من يتعرض له فى عبادته ، ولا يمنع انسان أن يظهر رأيه ، وأن يكتبه ، ويطبعه ، بشرط أن لايضر ما فى القانون ، فإذا أخل أدين ، وسائر الأملاك والأراضى حرم، فلا يتعدى أحد على ملك آخر، وللدولة دون غيرها أن تنزع ملكية إنسان بشراء عقاره للمنافع العامة بشرط أن تدفع الثمن العادل ... انتهى ».

(٧)

حقوق الناس التى يضمنها الديوان :

«اعلم : أن معنى قول القانون : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة » .. معناه سائر من يوجد فى البلاد من رفيع ووضيع ، حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة : إن لها تسلط عظيم على إقامة العدل ،واسعاف المظلوم، وارضاء خاطر الفقير بأنه العظيم فى نظر العدل .. »

واعلم : « أن الحكم بالحرية ، هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة، وهذه القضية هى جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الأداب الحاضرة ، ومايسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا: العدل والإنصاف ... انتهى ».

❊ ❊ ❊

« وبالجملة : اذا وجد العدل فى قطر من الاقطار ، فهو نسبى .. اضافى، لا عدل كلى حقيقى ، فإنه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان، فإنه كالإيمان الكامل ، والحلال الصرف ، وأمثال ذلك ونظائره، فلا معنى لحصر المستحيل فى الغول والعنقاء والخل الوفى .. انتهى »

❋ ❋ ❋

عن حرية الرأى :

واعلم : أن هذا القانون - الشرطة - يقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصا «الورقات اليوميه » - الصحف - المسماة بالجرنالات .. ، فإن الانسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، كما أنها تتضمن مسائل علمية جديده التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير فإن الدرة لا تستهان لهوان غواصها .

«واعلم : أن من فوائد الجرنالات .. أن الانسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة ، كتبه أهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام ، كما تطبع « الجرنالات » - مقالات وأراء أصحاب الرأى الذين يناقشون كل شيء بحريه كامله دون أن يتدخل أحد ويقطع أو يمنع هذه المناقشات الحرة .. لكل شيء يخص الدولة والعامة كما ينتقدون أفعال الملك والوزراء والنواب .. »

في ذكر تقدم أهل باريس في العلوم والفنون والصنايع :

اعلم «أن معرفتهم ثابتة لسائر الفنون العلميه التى يظهر أثرها بالتجاريب .. وإتقانها عنده لانزاع فيه .. كما أن العلوم النظرية معروفة لهم غاية المعرفه .. ولكن .. لهم بعض اعتقادات فلسفية خارجة عن قانون العقل والشرع بالنسبة لغيرهم من الأمم .. غير أنهم يموهونها ويقوونها حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها ، وعندهم : أن المعرفة بأسرار الألات أقوى معين على الصناعات ..

❋ ❋ ❋

واعلم:«أن تعليم الصغار يصنع التقدم فى العلوم والفنون بسهولة .. فأنت تخاطب الصغير عندهم . الذى خرج من سن الطفولة - عن رأيه فى كذا .. وكذا .. فيجيبك بما معناه : الحكم على الشىء فرع من تصوره .. ونحو ذلك .. بدلا من قوله : لا أعرف أصل هذا الشىء.. والمعنى : أولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة، وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق ، والعادة أنهم لايزوجون أولادهم قبل إتمام تعلمهم .. وقليل منهم من كان فى سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس أو تعلم صنعته التى يريد تعلمها ، ... وماأحوج مصر لكل هذا ... »

❋ ❋ ❋

واعلم : «أن العلماء عندهم لهم منزع آخر .. فهم تعلموا تعلما تاما ودرسوا عدة أمور ، وزيادة على ذلك درسوا بفرع مخصوص - تخصص - واكتشفوا كثيرا من الأشياء .. واخترعوا كثيرا من الألات ..

ويجددون فى علوم وآلات .. غير مسبوقين بها .. وعندهم علماء تخصصوا فى فروع الطبيعيات .. وفروع الكيمياء .. والطب والزراعة . والبحار .. وبناء السفن والذخيرة والمدافع ..

واعلم : أننا يجب أن نعمل فى مصر أيضا ما عند الفرنسيس من «محال» عظيمة لطبع الكتب وتوزيعها على الناس بثمن زهيد .. لتعم فوائد المعارف ويتثقف - الناس .. وكذلك عندهم خزائن كثيرة كبيرة للكتب - دور الكتب - وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا .. وهى عندهم غير مهانة ، بل مصونة غاية الصون .. وبعضهم لخص من القرأن العظيم سائر الأيات التى أختارها للترجمة ثم ترجمها وضم إليها قواعد الإسلام ، وقال فى كتابه : أنه يظهر له أن دين الاسلام هو أصفى الأديان .. وإنه مشتمل على مالا يوجد فى غيره من الأديان .. وفى أغلب الضواحى رأيت خزائن الكتب تيسر للعامه قراءة الكتب بالمجان .. وهذا ما تحتاجه مصر المحروسة ..

واعلم : « .. أن من خزائن الكتب : خزانه «مسيو».وتسمى : خزانه الارسنال .. أى الترسخانة ، وبها نحو ائتى ألف مجلد مطبوعة .. وعشر ألاف منسوخة .. وأغلبها كتب تاريخ وأشعار .. خصوصا الايطاليات ...

❊ ❊ ❊

واعلم :«أنه... عندهم خزائن المستغربات - المتاحف - ويوجد بها كل ماتتشوق إليه نفوس الفضلاء .. وهم يستعينون بهذه «المتاحف» على الغوص فى فهم علوم الطبيعيات : كالمعادن .. والأحجار..

والحيوانات البرية والبحرية .. المحنطة .. والحية .. وهم هنا يدرسون مايرونه فى المتاحف ويؤلفون عنه الكتب .. كما أن عندهم متاحف عبارة عـن بساتين واسعة جمعـوا فيهـا سـائر مـا تعرفه البشرية من أشجار ونباتات ..

وفيها يدرس الطلاب نباتات يستخرجون منها العقاقير العلاجية .. ويوجد فى كل متحف .. قائمة أو بيانات مع أنواع وعينات للبحث والتعلم .. ومكتوب على كل شىء اسمه باللغة الفرنسية أو - اللاتينية - !! - ... وفى هذا البستان قسم يسمى رواق التشريح وفيه جميع الموامى - الموميات - والجثث المحنطة المصبرة .. ويوجد بهذا الرواق بعض من جثة «المرحوم الشيخ سليمان الحلبى الذى أعدموه لقيامه بقتل الجنرال الفرنساوى كليبر ..و

❋ ❋ ❋

واعلم : أنه يلزمنا أيضا أن نتعلم منهم «محال» - أماكن مجهزة بالمعدات العلمية- العلوم الفلكية وفنونها ، وعندهم المرصد السلطانى وجعلوا ضلوعه الأربعة .. موجهة لجهات ! الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب ... وفيه ميزان لامتحان ثقل الاجسام الطبيعية .. وميزان للهواء .. وفيه آلات تعديل الرياح المسماة «الاتيموتر» ، وبها «طشت» يسمى «دن العيار» يقاس به ماء المطر الذى ينزل كل سنة .. ومخادع الرصد داخله فى الأرض إلى سمك يساوى سمك حيطان المرصد .. ووظيفة هذه « المخادع » أنها تفيد الطبايعية والكيماوية ليصنعوا بها تجاربهم ، بأن يجمعوا بها المائعات ويبردوا بها الاجسام ليعوفوا « مزاج الأهوية » - أى حالة الجو ودرجات الحرارة - حاليا - !!

❋ ❋ ❋

واعلم : «أن من «المحال» العلمية عندهم ، موضع يقال له : «الكنسروتوار» .. ومعناها : المخزن .. أو المحفظا .. وفيه جميع الألات العظيمة وغيرها خصوصا الآلات الهندسية كألات الحيل وتحريك الأثقال

... وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص برد عجيب ... فجدرانها مصممه مصمته سميكة لحفظ المعدات الحساسة ...

واعلم : أنه يكثر بالمدينة مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع لتعليم عامة أبناء الناس .. الغنى والفقير ....

❊ ❊ ❊

واعلم : «أن العلماء هنا لهم «مجامع » عظيمة تسمى باسماء مختلفه فمنها ما يسمى «أكدمة» .. ومنها مايسمى «مجمعا» أو«مجلسا ».. و«أكاديمية اللغة الفرنسية » و « أكدمية العلوم الطبيعية والهندسية ». و«أكدمية الصنايع الظريفة» .. و« أكدمية الفلسفة » .. وبالمناسبة : كلمة «أكدمة» أو«أكدمية» ..أو«أقدمية»..هو لفظ مأخوذ عن اسم مكان فى مدينة أثينا كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ... فإذا قلت «أكدمة مصر فالمراد بها : الجامع الأزهر ..لأن المراد به : ديوان أكابر علماء مصر .. وفى باريس «أكدمة الفرنسيس » ووظيفتهم : تأليف القواميس اللغوية ، ويمتحنون مؤلفى كتب العلوم والأدب والتاريخ .وعندهم «أكدمة العلوم » وبها اثنى عشر قسما لكل قسم

فرع مخصوص فى الهندسة - أو الرياضيات - وجر الأثقال - وعلوم الفلك - وعلوم الجغرافيا - والعلوم التجريبية ، والطبيعية والكيمياء ، وعلم الحشائش ، وعلم الزراعة ومصاريف الأرض -وعلم الحيوان - وعلم الحشرات وغيرها .. ونحتاج لمثل ذلك كله فى مصر المحروسة

واعلم : أنه فى باريس «أكدمة مستظرفات الفنون » وهى خمسة فروع : فن الرسم - فن النحت - فن العمارة - فن النقاشة - فن تركيب حروف الموسيقا . ونحتاج .إلى «أكدمة فنون «مثلها فى مصر المحروسة .. فى قابل الأيام ..

واعلم «أن عندهم جمعيات العلوم .. وتعين على تقدم الفنون والصنايع .. مثل «أثينة الفنون » .. وهى محل علوم وفنون .. ولا يكون فيها الانسان للتعلم الا اذا دفع شيئا يسيرا كل سنة ، و«الجمعية الفيلومانية » ومعناه محبو العلوم .. والغرض منها : الاعانة على التقدم فى علوم التولدات .. وهى مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن ، و«جمعية علوم الانشاء والبلاغات » والغرض منها : تدوين العلوم الأدبية وحفظ غريبها حتى لا تفسد اللغة الفرنسية ..

❉ ❉ ❉

واعلم : «أن عندهم مدارس تسمى «الكوليج » ويتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التى تكون وسائل لتعلم أمور مقصودة ، وهى خمسة كوليجات ، يدرس فيها : صناعة الانشاء والتأليف ، والالسن القديمة الغريبة ، والعلوم والرياضيات ، وعلم التاريخ والجغرافيا .. والفلسفة وأصول الطبيعيات .. يعنى كتبها الصغيرة .. وعلم الرسم ، وعلم

الخط، و... وفيها مراتب للطلبة ، والدراسة بها ست سنين والنجاح فيها بالامتحان والترقى .. سنه بعد سنة .. وعندهم كوليج عظيم لتعليم اللغات : العربية - الفارسية - التركية - العبرانية - السريانية .. والصينية ..و.... وعلوم كل بلد وأدابها وكتب تراثها القديم والجديد .. وهذا الكوليج يشتمل على أكابر المدرسين وفيه ستة ألاف طالب . ...

«ونحتاج إلى مثل هذه «المدارس» فى مصرنا .. ويجب ...على الحاكم والعلماء وأهل الهمة من الرعية صرف الجهود فى توفير الأبنيه والامكانية لتعليم الأطفال والصبية المصريين فى المدارس .. التى لا بد من توفيرها .. مهما كانت التضحية ..»

واعلم : « أن هناك » أكدمة تقييد الفنون الأدبية » ووظيفتها : الاشتغال بالألسن النافعة .. وبآثار القدماء خصوصا المبانى الغريبة ، وبالعلوم الأدبية .. وبعوائد الأمم وأخلاقها .. وغالب شغلها : تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت منه مما هو فى كتب علوم اللغات الغريبة .. أفرنجية وعربية وهندية ..

اعلم : «أنه فرض عين على مثلى أن يعمل على نقل هذا النظام كله إلى مصر .. لتحقيق النهضة الحديثة بها ..انتهى » !..

(٩)

فى تدبير شأن الدخول والخروج .. للأفندية

« .. كنا لا نخرج من بيت الأفندية ليلا ولانهارا .. إلايوم الأحد .. بورقة إذن للبواب من الضابط الذى نظره علينا ولى النعم ، ثم بعد

تفرقنا فى «البنسيونات» كنا نخرج أيام البطالة من الدراسة .. وهى يوم الأحد بتمامه ، ويوم الخميس بعد الدروس .. ثم فى أيام أعياد الفرنساوية ..

« .. ومنا من كان يخرج كل ليلة ، بعد العشاء - إن لم يكن له درس بعده .. »

«وكان مسيو «جومار» المشرف على بعثة الانجال هذه يضع لائحة بترتيب معيشة الافنديات - أعضاء البعثة - فى البنسيونات وفى الدروس .. وفى الخروج لخزائن الكتب .. أو للتنزه ..وكان كل شىء مرتب بمواعيد دقيقة .. لامجال فيها للعب أو التهاون .. فساعد ذلك على انضباط الأمور ، وتيسير الأحوال.. ووجدت بذلك الوقت الكافى لدراسة العلوم والمعارف والنظم والكتب وكل ما يتصل بقواعد المدينة الحديثة .. مما يصلح للعمل به فى مصر المحروسة .. والله المستعان على الجهد الشاق ..

❊ ❊ ❊

(١٠)

آخر فرمان

« .. وصلنا فرمان من الوالى محمد على باشا .. وكان من نوع احياء الآمال الكبيرة وهو آخر فرمان وصلنا قبل رجوعنا إلى مصر القاهرة.. وجاءت فيه :

قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس ، لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم... ينهى إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم مبهمة ، لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة.. فيا أفندية : ما هو مأمول منكم !.. فكان ينبغى لهذا الوقت أن لكل واحد منكم يرسل لنا من أثمار شغله وآثار مهمته ، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم انكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل.. فعندنا ولله الحمد والمنة.. رفقاؤكم المتعلمون ، يشتغلون ويحصلون الشهرة.. فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة ، وأن يجنى ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك.. ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم.. فإن أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون.. وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين لنا زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم.. وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب كل شهر ما تعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق.. وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم.. وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين.. وافهموا مقصود هذه الارادة.. أريدكم جميعا فى مثل نجابة ولدنا شيخ رفاعه الطهطاوى.. الذى ذهب واعظا لكم فتعلم من نفسه وترجم الكثير من العلوم والمعارف النافعه لنظام ودواوين الدولة

المصرية ونحن ننتفع بها وننفذها.. لصالح الأمة وخير الرعية ، فادخلناه معكم نظام البعثة.. فاعملوا مثله ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه.. فاعلموا بموجبه.. قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر، فى مجلسنا فى الاسكندرية بمنه تعالى خمسة فى ربيع أول ١٢٤٥ هجرية انتهت صورة المكتوب.. »

وهذا هو.. المكتوب

« باريس ١٥ فى شهر يونية ١٨٢٩ - ٢٥ فى شهر محرم ١٢٤٦ هـ

« إلى محبنا العزيز الشيخ رفاعه الطهطاوى.. لا يخفى عليكم الأمر الوارد من ولى النعم ، المتعلق بالأوراق الشهرية المشتملة على الدروس التى قرأتموها.. فدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق فى يوم الثلاثين كل شهر لمسيو المهردار أفندى ، واطلب منه أوراقا غير مكتوبة لتكتبها بعد ذلك ، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى كتابتها الا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ، ومعرفة نوعها ، وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك.. ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها واعلم وتيقن بمحبتى لك.. »

« جومار أحد أرباب ديوان التعليم الفرنساوى »

(١١)

مكتوب.. بالنبوغ.. والعبقرية !

.. فى بعض مراسلات.. من كبار علماء

« فممن كاتبنى عدة مراسلات : مسيو دساسى.. ولنذكرك ما كتبه بالعربية.. وبالفرنسية صورة مكتوب منه :

« من الفقير إلى رحمة ربه ، سبحانه وتعالى ، الى المحب المكرم.. والأخ المعز المحترم.. الشيخ الرفيع : رفاعه الطهطاوي ، صانه الله ، عز وجل ، من كل مكروه وشر ، وجعله من ذى العافيه وأصحاب السعادة والخير.. أما بعد : فإن القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس ، وحوادث اقامتك فى باريس ، رددتها إليك على يد غلامك وبصحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب الفعل فى لغتنا الفرنساوية.. ومن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوربا كلها.. حتى يهتدى أهل مصر إلى موارد تصنيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها ، فإنه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر.. ودمت سالما.. كتبه المحب سلو سترى دساساى.. »

❋ ❋ ❋

مكتوب آخر

« إلى حبيبنا الشيخ رفاعه الطهطاوى ، حفظه الله وأبقاه.. أما بعد: فإنه سيصلك مع هذا ما طلبته منا.. من الشهادة باننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك.. « تخليص الابريز فى تلخيص باريز ».. وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية ، وعوائدهم ، وسياستهم وقواعد دينهم ، وآدابهم ، وفنونهم ، وعلومهم ، وجدناه مليحا مفيدا ، يروق الناظر فيه ، ويعجب مـن وقف عليه ، ولا بـأس أن نعرض خط يدنا - هذا - على « مسيو جومار ».. وان شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا ، وينعم عليك بما أنت أهله.. ودمت على أحسن حال.. محبك الداعى : سلو سترى دساسى الباريزى »..

مكتوب « دساساى ».. إلى « جومار »..

إلى حضرة العـلامة.. مسيو جومار. المشرف على البعثة المصرية :
« لما أراد مسيو رفـاعه.. أن اطلع علـى كتاب ســفره المــؤلف باللغة العربية ؛ قرأت هذا التاريخ.. الا اليسير منه ، فحق لى أن أقول : ان رفاعه يظهر لى انه صناعة تربية عظيمة بدأت هناك فى طهطا ، ثم فى الأزهر.. وانه يفهم بلادنا فرانسا.. كما يفهم احوال أهل بلاده فهما صحيحا ، ويعرف عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، كما يشتمل على بعض أحكام اسلامية.. ومن هذا الكتاب النفيس يعرف علم هيئة العالم ، وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها ، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن ، وقد حرص فى باب العلوم على ذكر المعلومات.. توطئة للتوصل إلى المجهولات.. خصوصا فى نبذته فى علم الحساب ، وبهيئة الدنيا.. وافهم أنه قد جهز خطة عظيمة لينفذها فى بلاده مصر.. ولو فعل لأحدث ثورة كبيرة « فهو شاب حباه الله بالنبوغ والعبقرية.. وعلو الهمة »

.. وبالجملة ، فقد بان لى أن مسيو رفاعه ، أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعا فى بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة.... انتهى »

« البارون سلو سترى دساسى

باريس فى شهر فبريه

١٩فى شعبان سنة ١٢٤٦ »

❊ ❊ ❊

ومكتوب مسيو كوسين دى برسوال

« حضرة المحب العزيز الأكرم ، اللسان والقلم ، جناب الشيخ رفاعه المحترم . حفظه الله ، أمين. بعد اهدائكم السلام.. ومزيد التحية والاكرام ، فواصل لكم طيه تحرير يحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى تفضلتم علينا باطلاعنا عليه ، وبالحقيقة قلنا ما هو باعتقادنا ، وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن ، وأما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيئا . وحيث إنكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر إلى بلادكم مصر ، فالمأمول أن تواصلونا بالاعلام بصحتكم، ونترجاكم انه اذا طبع كتابكم تبعثوا لنا منه نسخة وبذلك تصيروننا ممنونين ولأفضالكم شاكرين.. والله يحفظكم :

محبكم كوسين دى برسوال

٢٤ شباط فبراير سنة ١٨٣١.

❋ ❋ ❋

إلى العالم المحترم مسيو جومار :

« .. قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعه الملقب : تخليص الابريز فى تلخيص باريز » فوجدته يتضمن حكاية سفر المصريين المبعوثين إلى فرنسا من طرف وزير مصر الحاج محمد على باشا. ويشتمل على تخطيط باريز ، وعلى نبذات فى جملة فروع من العلوم المطلوبة لتعليم المصريين ، وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المديح.. وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف.. مصر . فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا وعوائدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم

البشرية والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعليم التمدن الأفرنجى ، والترقى فى صنائع المعايش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات ، وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده : أنه ينبغى لهم تقليد ذلك ، وما نظر فيه يدل على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل ، ويترجى من المؤلف أن يداوم على تأليف النبذات الباقية عن باقى العلوم.. واذا تم ذلك فى هذا الكتاب ، يكون كتاب علوم المستقبل.. مفتاحا لغيره من العلوم ، نافعا لأهل العربية.. والكتاب يستدل به على رفعة عقل مؤلفه ، واتساع دائرة معرفته .

امضاء كوسين دى برسوال - فبراير « شباط » سنة ١٨٣١ .

❁ ❁ ❁

(١٢)

العودة للوطن

فى أواسط عام ١٨٣١م - ١٢٤٦هـ

وقف رفاعة مع زملائه يودع باريس.. استدار إلى البحر.. أراد اختراق الغيوم والمسافات والضباب.. وجحافل الظلام المتراكم عند الأفق الشرقى.. وهفا قلبه.. وخفق عقله.. وتدفقت الدماء فى كل دماغه وبدنه.. بالشوق إلى رؤية الأقارب والأحباب و.. أحضان الديار.. وإمساك القلم.. وشحذ العقل وإصرار على : تقليب الأرض.. اقتحام

الجهل.. غرس البذور.. وريها بالدم والدموع والعرق والصبر والإيمان والعناد.. وشق الصخور.. زلزلة الجبال إطلاق نيران المعرفة شموسا تحيل الليل نهارا.. وهز الديار هزا.. بركانا.. يزيح عن الكواهل كرب السنين.. وهموم الأزمنة الرهيبة.. وتوليد فجر جديد.. وثاب.. عملاق.. يضيء الأفق الشرقى.. ويجعل شموس الحسن طرا تشرق على بر مصر وأهل العرب نهارا وليلا.. ولكن.. هزه الخوف من المجهول .. وتخيل وجوه المعارضين ودسائسهم و.. ناجى ربه : أنت المستعان على قادم الأهوال !..

❋ ❋ ❋

الجزء الخامس

الجبل النارى
وإحياء القلوب
(١)

« .. وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية ، فلا معول على من لم يكن نير السياسة ، ساطع الكياسة ، ولا اكتراث إلا بمن رقى رتبة أعلى بالفهم والعلم والقوانين ، وتشبث بالشريعة وكان فيها ذا رياسة ، ودرى أن القصد إنما هو حث أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس.. وتعلم ما يؤهلهم لإملائهم الأحكام.. فالمصريون هم.. هم الناس.. و.. »

❁ ❁ ❁

أصدر محمد على باشا فرمانا بتعيين رفاعة.. مترجما بمدرسة الطب برئاسة كلوت بك.. فكان رفاعة يقوم فيها بالترجمة وبتدريس اللغة الفرنسية بالمدرسة الملحقة بها.. وقام بمراجعة ترجمة كتاب « التوضيح لألفاظ التشريح »

❁ ❁ ❁

وفى داره بناحية العباسية.. جلس يستكمل مراجعة كتابه « تخليص الابريز.. » تمهيدا لطبعه.. كما أمر الباشا.. قالت كريمة ، وقد انتفخت بطنها بالحمل :

– أمك طلبت منى قبل أن تعود لطهطا.. أن ألد عندها.. إن شاء الله.. ليكون للولد مسقط رأس يعتز به

ضحك رفاعه.. وداعبها.. وقال :

– ومن قال لك أنه سيكون ولدا يا كريمتى الغالية..

أسندت رأسها إلى كتفه.. أخذ يداعب خصلات من شعرها قال :

– لو عرف الأزواج ، أن مداعبة زوجاتهم واجب لازم لا نصلح ميزان الدنيا فى كل شىء.. بل يجب على الجميع العناية بتعليم المرأة ورعاية كل شئونها لأنها الأساس المكين فى تربية الأولاد ، ورعاية شئون زوجها.. وهى ميزان الأسره.. وأصل بناء البلاد والدول..

قالت كريمة :

– « أشعر بأنك ستضع كتابا عن النساء والحب..

داعبها.. قائلا : « بل عن المرأة والتعليم.. وتربية البنات والبنين.. اسمه : المرشد الأمين..

وسألته كريمة : وبالمناسبة.. ولقرب تشريف نجلنا العزيز.. ماذا ستقول فى الكتاب عن تربية الأولاد.. قل فمنك نستفيد ونتعلم .

قال رفاعه : سأقول لك ولكل الأمهات.. وكل المصريين حكاما ومحكومين :

– إن تربية الولد ينبغى أن تكون فى بيت أمه وأبيه وهى التربية اللائقة للبيت ، وكل امرأة لم تربها أمها فى صغرها لا ترغب فى تربية

أولادها فى كبرها.. وتربية الأمهات لأولادهن قليلة فى أوربا.. بل يكون أمر التربية موكولا للمرضعة.. ولكن عندنا.. تقوم الأم الكريمة بإرضاع ابنها بنفسها ، وذلك أصلح لصحته البدنية والنفسية.. فتشبعه حنانا وعطفا وتدليلا.. لكن.. لابد من شيء من الحزم فيما بعد ليشب الأبناء والبنات عن الطفولة إلى الصبا وهم أقوياء البدن ، ثم لابد من تعليم الصغار.. بل ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً»

قالت كريمة :

- يا شيخنا انتبه لكلامك الخطير . لقد رجعت من باريز.. انت هنا فى مصر المحروسة.. لو سمعوك.. فربما أحلوا دمك.. كيف تعلم البنات والصبيان ؟.

قال رفاعه فى حماس :

- « لحسن معاشرة الأزواج فيما بعد.. فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مايزيدهن أدبا وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً.. ويصلحن لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها.. وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، وهذا ما يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل.. وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، فالمرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وما عندها.. وهكذا.. »

قالت كريمة فى انبهار :

- ستحدث بالبلد احداثا كبيرة يا رفاعه.. لكن.. هل يسمح الباشا بتعليم البنات وتشغيل النساء ؟!..

قال رفاعه :

- هذا ما الح عليه بشأنه كلما قابلته.. لكنه يماطل ويراوغ.. لأنه لا يشغل باله إلا بالجيش والحروب.. ولو كانت المرأة تصلح للعسكرية فربما كان قد رضى بتعليمها.. لكن.. دعينا من هذا الكلام... ودعينا نحلق فى دنيا الحب والغرام والأحلام.. ولا تندهشى من غزلى.. فالرسول صلى الله عليه وسلم نصح المسلمين بملاطفة زوجاتهم و......

قال عليه السلام : اجعلوا بينكم وبينهن رسولا.. قيل : وما هو يا رسول الله.. قال : قبلة.. »

(٢)

قال الشيخ العطار :

- « حزن الباشا لاختلافك الدائم مع كلوت بك حول نظم التعليم بمدرسة الطب .

قال رفاعه :

- هو يريد أطباء للجيش فقط.. وأنا أريد التوسع فى دراسة كل الأمراض.. والتوسع فى قبول الطلاب من أبناء المصريين ليعودوا إلى قراهم وبلادهم ويعالجوا الأمراض التى تنهش فى الفلاحين والفقراء..

قال العطار :

- على العموم.. فأنا أعرف أنك منذ عدت من باريز.. لن تكف عن العراك.. والخلاف.. لأن مشروعك ضخم وكبير.. والدولة كسولة ولا تحقق لك إلا القليل مما تريد لتنوير عقل الأمة بالعلم والتعليم.. اسمع يا رفاعه.. الوالى - حلا للمشاكل مع كلوت بك.. قرر نقلك إلى مدرسة الطوبجية.. وعسى أن تجد هناك وقتا لتنجز ترجمة كتاب فى الهندسة ،

قال رفاعه : وسأعيد صياغة كتاب « الكنز المختار فى كشف الأراض والبحار ».. بإذن الله..

❋ ❋ ❋

وبدأ الطهطاوى يحقق آماله فى تأصيل علم الجغرافيا قال لناظر مدرسة الطوبجية.. « سكويرا بك » :

- يجب أن أعد بعض أبناء المدرسة ليكونوا مدرسين للجغرافيا

قال سكويرا بك :

- عظيم.. وتعلمهم كشوفات بحارة أسبان وبرتغال

- وغيرهم.. فالعلم لا وطن له.. ولا حدود أيضا..

.. وأعاد رفاعه كلامه بالفرنسية ، فغضب «سكويرا بك» وقال :

- أحب الحديث بالأسبانية.. والعربية.. فقط !..

فانصرف رفاعه إلى تلاميذه .

وقرر «سكويرا بك» إبعاد رفاعه عن مدرسة الطوبجية

❋ ❋ ❋

وافق محمد على باشا على إنشاء مدرسة خاصة للجغرافيا . والتاريخ.. وانشغل رفاعه فى اختيار تلاميذه. كان يركب الحصان، والحمار مع الشيخ العطار ليذهب إلى القرى والنجوع بحثا عن الصبية والشبان الصالحين للتعليم.. لكن الآباء كانوا يخافون.. يظنونهم من رجال السخرة.. أو خطف العيال.. لبيعهم فى سوق العبيد ليكونوا مماليك و...

بذل رفاعه والعطار ، جهودا مضنية لشرح غرضهم فى نشر التعليم بين المصريين و....

اختارا تلاميذ مدرسة الجغرافيا والتاريخ .. وأعد رفاعه كتابه : « التعريبات الشافية »

و ....

(٣)

فوجىء رفاعه بالشيخ غماش يزوره فى داره.. سأله :

- أين أنت يا رجل ؟..

قال :" رجل تجارة وأموال.. فقد تركت الأزهر عندما ورثت المرحوم أبى.. وله ضيعة كبيرة فى قليوب كان قد رشا الديوان العالى فى القلعة ليتركها باسمه ،

قال رفاعه : أرى أن أحوالك ميسورةوالحمد لله

تباهى غماش بثيابه الغالية المزركشة ، وقال :

- قصدتك بأسم الصحبة وزمالة العمر واليمك والجراية فى رواق الأزهر..

ضحك رفاعه : وباسم مضايقاتك الصبيانية لى.

فضحك غماش وقبل رأس رفاعه.. وقال :

- يا شيخنا العظيم.. كان طيش شباب..

- وهل عقلت الآن ؟..

- وجئتك لتساعدنى فى الزواج ؟..

- كيف ؟.. هل ينقصك المال.. مثلا ؟..

- بل العروس..

- لا أفهم يا غماش.. فأفصح يا رجل ؟

- صافيناز هانم..

- من ؟..

- بنت طبوظوغلى بك.. رحمه الله وغفر له ولنا..

- ومالى بها يا غماش .

- لك عندها خاطر كبير . أعرف ذلك منذ أيام الشباب الأول.. ولولا أنى أعرف أنك لا تميل إلى الهوى.. ما وثقت بك.. ؟!..

قال رفاعه - وهو يغالب ذكرى حديث « صافى » معه - :

- ولكنها تزوجت من مظهر بك ابن عمها..

ضحك غماش.. وقال: أفق يا رفاعه لقد طلقته أو طلقها من شهور..

سأله رفاعه : وهل تحبها أنت وتقدر على إسعادها..

قال غماش: أحبها.. وأحب مالها وأحب نفوذ المرحوم طبوظوغلى بك. ونفوذها هى المضمون عند بعض الدواوين ، ولدى بعض أنجال الوالى.. كبير.. تعطيهم هدايا كثيرة !!...

- وهل توافق هى عليك ؟..

- قابلتها مرتين.. فى حفل أقامته نازلى هانم والأمير عباس أول.. ولم تمانع فى مجالستى وبثتنى شكواها من مظهر بك..

- بثتك أنت يا غماش ؟!

- وفيم الغضب شيخ رفاعه . لا تنس أنك تزوجت ابنة خالك ، وأنا أعد لك هدايا المولود وسأحملها بنفسى إلى دارك.. لكن..

- يا غماش.. يا غماش . كيف تعيش وأنت ناقص عقل ودين !..

- بمالى الوفير يا رجل . بدهائى.. وينقصنى بعض النفوذ.. فقد رأيت بنفسى كيف تحترم نازلى هانم كلام صافيناز هانم.. و..

صاح رفاعه فى زهق : لو وعدتنى باصلاح حالك والاقلاع عن طباع الشراهة فيك.. فأنا أرحب بالتوسط لك عند صفيناز هانم.

- اذن هيا بنا إليها الآن..

-قلت لو غيرت طباعك .

- وكيف أعيش وسط الثعابين والسحالى..

- لقد فسد حالك.. تماما يا غماش .

- بل أنا رجل صالح.. لكنها أمور المال والتجارة .

- معذرة.. ورائى أشغال كثيرة .

غضب غماش.. ولام رفاعه لتنكره لصداقة العمر وخرج قائلا :

- ثق أننى سأدعوك لزفافى عليها فى القريب العاجل و.. سأحضرها معى لتقديم هدايا مولودك إن شاء الله.. »

هرب رفاعه من ذكريات صافيناز ولام نفسه لتفكيره بها.. هرب إلى عمله فى غضب..

❋ ❋ ❋

(٤)

أغلقت مدرسة الجغرافيا والتاريخ.. بعد أن عطلت الدراسة لانتشار وباء الطاعون سنة ١٨٣٤.. أخذ رفاعه زوجته كريمة ، وسافرا إلى طهطا.. وبقى شهورا.. وضعت كريمة ابنهما « على ».. فرحت به الانصارية.. حملته وزارت به ضريح جدهم أبى القاسم.. وقالت :

« تبركا.. وليس تقربا يا ربى فأنت قريب تجيب دعوة الداعى.. فبارك اللهم فى حفيدى وابنى وزوجه.. واجعلهم ذرية صالحة على الدوام.. آمين »

❋ ❋ ❋

انجز رفاعه ترجمته لمجلد كامل من كتاب « الجغرافيا العامة » للطبرون.. وحمله عند العودة من طهطا إلى الوالى.. يصحبه الشيخ العطار.. الذى قال :

- « ان ترجمة هذا السفر الهام لهو عمل جليل ..و نفع كبير إن شاء الله .

وكان الوالى سعيدا بتوصيات مسيو جومار التى تذكره دائما بالاستفادة من حسن تدبير ، وعلوم الشيخ رفاعه.. فرضى بانجازه لهذا الكتاب ، وقال له .

- عد إلى مدرسة الطوبجية.. وأنشىء بها فصولاً لمدرسة الجغرافيا والتاريخ.. وعلم المصريين ما تشاء بها .

فقال رفاعه : لكن يا جناب الباشا.. مدير المدرسة « سكويرا بك » يكره المثقفين المصريين وخصوصا أصحاب الثقافة الفرنسية .

قهقه الباشا.. وقال :

- أنا أحميك من سكويرا بك.. لا تخف من مضايقاته..

.. وبعد مدة ، عادت الخلافات بين رفاعه وسكويرا بك.. فنقل رفاعه أمينا لمكتبة المدرسة التجهيزية بالقصر العينى.. قال رفاعه :

- هذا أملى الآن.. أريد عملاً هادئا دون مضايقة إلى أن ينجلى الحال وبأذن المولى سبحانه فى تأسيس قاعدة قوية لنشر التعليم والعلوم والآداب والفنون والتصنيع فى الديار..

(٥)

هلل رفاعه.. قال :

- يا كريمة.. الآن تحقق أحد أحلامى العظيمة..

سألته فرحة : منحك الوالى البكوية.. أم أبعادية وقصرا.. !

قال رفاعه : اكثر من ذلك.. لقد أنشئت مدرسة الألسن.. فى مصر القاهرة المحروسة فى سنة ١٢٥١ هجرية - ١٨٣٥ ميلادية

قالت كريمة :

- وما هى مدرسة الألسن يا رفاعه ؟..

- مدرسة للترجمة.. لتعليم اللغات.. والترجمة.. لسد حاجة مصالح الحكومة من المترجمين ، وتملأ خزائن الكتب بالمؤلفات الحديثة.. والقديمة من شتى لغات الدنيا.. لنشر العلوم والمعارف اللازمة لتنوير عقل هذه الأمة..

قالت كريمة :

- رعاك الله.. ووفقك فى طريقك يا رفاعه يا بن الانصارية .

.. ضمها رفاعه وقبلها.. وقالت :

- يا رجل.. ابننا على كبر.. ويفهم.. وقد يدخل علينا الآن..

ضحك رفاعه.. وقال :

- هذا الولد.. ألن يكف عن البقاء طويلا عند جده الشيخ محمد.. وجدته الست أم كريمة.. سيفسدانه بكثرة تدليلهما له..

قالت كريمة : سأخبرهما بكلامك ضدهما..

❋ ❋ ❋

(٦)

كانت مدرسة الألسن هى فرصة رفاعه.. ليضرب ضربة كبرى تهز الجمود.. تقشع التخلف عن عقل مصر.. فانهمك فى عمله ليلا ونهارا.. كانت المدرسة قد أنشئت بهدف تزويد الحكومة والمدارس الخاصة بمترجمين من الجراكسة وكبار الأعيان.. لكنه أرادها معقلا للمصرين وتخريج أجيال من مترجمى المستقبل لديهم مهارة فى الاستخدام الشفوى والتحريرى بكل اللغات الأجنبية.. كان يريدها مثل مدرسة اللغات الشرقية التى عرفها فى باريز.. لأستاذه المستشرق «دى ساسى».. ثورة فى التعليم..

« .. كان الطهطاوى مديرا وفنيا ومدرسا ومربيا للمدرسة، كما كان يشرف على مراجعة وإصلاح الكتب التى يعربها تلامذته. وكان يلقى على طلبته دروسا فى الأدب والشرائع الاسلامية والغربية ، وكان يرأس كل عام لجنة امتحان مكاتب المبتديان بالأقاليم.. يسافر فى النيل على المراكب ، ويركب الدواب على السكك والجسور المترية.. ويمتحن تلاميذ الأرياف.. ويأتى بالمتفوقين إلى مدرسة الألسن.. حيث كان يواظب على إلقاء دروسه.. ولفت انظاره طالب نبيه اسمه : محمد عبده.. فى حلقات الدرس بقرية من ريف البحيرة.. فاحضره إلى الأزهر.. ولفت نظره نبوغ عسكرى مبكر فى فتى من ريف الشرقية اسمه : احمد عرابى.. فأخذه إلى مدرسة الجيش بالقلعة.. وأثار إعجابه تلميذ آخر اسمه محمود سامى البارودى بما يحفظه من الشعر القديم فأخذ يكمل دراسته بالقاهرة.. و.. مكث سنوات كثيرة يبحث عن النابهين الصالحين للتعليم

فى ريف مصر.. وهو لا يلقى بالا إلى صحته وحق بدنه فى الراحة.. وفى أوقاته القصيرة.. بداره.. كان ينشغل بتأليف كتبه.. ثم يعود إلى مدارسه ليلا ليفتش على التلاميذ.. ويشرح لهم دروسهم.. « فكان ربما عقد الدرس للتلاميذ بعد العشاء.. أو عند الثلث الأخير من الليل.. وحتى يصلى بهم الفجر حاضرا.. ويدعو لهم بالتوفيق.. ويقول لهم :

- « اجتهدوا يا أبنائى الطلاب.. فمصر تنتظر منكم جلائل الأعمال.. كونوا جبال النار.. وبراكين النور.. زلزلوا أركان الجهل والتخلف.. وشيدوا حصون العلم والمعرفه.. لتحققوا نهضة عظيمة لهذه الأمة.. فهى خير أمة اخرجت للناس.. »

... وتطورت مدرسة الألسن لتضم مع اللغات قسما للادارة الملكية العمومية ، وقسما لفنون الادارة والشرائع الاسلامية والقوانين الأجنبية.. وقسما آخر للادارة الزراعية الخصوصية.. ورابعا للعلوم الفقهية.. وما ان تخرجت الدفعة الأولى من المدرسة ، حتى أنشأ رفاعه قلم الترجمة سنة ١٨٤١.. بعد أن أقنع الباشا بأهمية هذا الديوان لنهضة الدولة ودواوينها.. ليقوم العاملون فيه بالترجمة العلمية المتخصصة اللازمة لتسيير وتطوير الأشغال و.. تعددت أقسام المدرسة ، فقسم لكتب العلوم الطبية والطبيعية ، وآخر للعلوم الرياضية ، وثالث لكتب الأدبيات.. كالتاريخ والقصص ، ورابع للقوانين والجغرافيا ، وخامس للترجمة التركية.. و..

أشرف رفاعه الطهطاوى على قلم الترجمة باعتباره جانبا من جوانب العمل فى مدرسة الألسن.. فكان يراجع الترجمات بنفسه صياغة ومضمونا..

❊ ❊ ❊

وباشراف الطهطاوى ، ترجم عبد الله أفندى حسين.. كتابا اختاره له الطهطاوى وهو : سير فلاسفة اليونان.. وطبعه فى مطبعة بولاق.. كما تمت ترجمة كتب « تاريخ قدماء المصرين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود » .. وصدرت ترجمته العربية بعنوان: « بداية القدماء وهداية الحكماء ».

اما كتاب : « رحلة انخرسيس الأصغر إلى بلاد اليونان فقد وزع الطهطاوى ترجمته على خريجى الألسن.. ولكن الترجمة لم تطبع.. لمشاكل بين الطهطاوى وديوان الوالى ...

(٧)

عينة محمد على باشا.. مشرفا ورئيسا لتحرير جريدة «الوقائع» الرسمية » فى عام ١٢٥٧ هـ. وأصبحت فى عهده أول صحيفة عربية خالصة بعد ان كانت فى الأصل مجرد ترجمة عربية لأصل مكتوب بالتركية.. وكانت مجرد تسجيل لأخبار الحكومة والحوادث.. وجعلها رفاعه الطهطاوى تتحدث بلسان الحال لعموم من يقرأ من المصرين.. أضاف لها المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، علاوة على القطع الأدبية.. وانتخاب أخبار الملكية ، وترتيب الجريدة لتكون للقراء بصفة عامة ، وزاد من نشر الأخبار الداخلية منذ ١٨٤٢.

وابتكر فن المقال الصحفى لأول مرة.. وأسهم فى خلق الوعى السياسى للانسان المصرى الحديث ».. فعندما نشر خبر البرتغال وثورتها آنذاك والمطالبة بتعديل دستورها « كتب الطهطاوى مقالة متحدثا عن سلطات الدولة.. وقرأ المصرى فى عموم القطر- لأول مرة- عن : القوة

التشريعية والقوة الإجرائية ، والقوة الشرعية.. القضائية والقوة التلطيفية وهى تعيين الموظفين.. وفى نفس العدد من «الوقائع» كتب الطهطاوى عن اهتمامات أبناء عصره فى السياسة فيقول : « والآن يتساءلون عن أحوال الدولة ، داخلية أو خارجية ، من جهة إدارتها وسياستها وما فيها من التولية والعزل ، ونحو ذلك.. وهذا ما يسمى بالبولتيقا . فلذا كانوا فى بلاد أوربا يتساءلون عن أخبار يومهم ، وعما يوجد من الأخبار الداخلية والخارجية المتعلقة بالحكومة ، و.. يتحدث الطهطاوى عن الديمقراطية بمعنى الجمهورية الأهلية.. والارستقراطية بمعنى حكم الطبقة والمورتاخية أى ملكية أو سلطانية أو مختلطة..

وبالمناسبة ، يوضح الطهطاوى فكرة : « سيادة القانون »

.. فحكم الملك أو السلطان « إما مقيد » أو «مطلق التصرف» ويشرح للناس : « فالمقيد هو أن يكون الملك لا يحكم إلا بقوانين المملكة التى انحط عليها القرار ، ولا يخدشها بنفسه ولا يخرج إلى ارادته ».. ويكون الحكم هنا للرعية من خلال رسلها أو نوابها الممثلين للأقاليم فى ديوان عام للنواب لتمثيل مصالح الأمة ».. و..

بدأ ينير عقل الرأى العام المصرى. سياسيا.. وبدأت « الاستنارة السياسية » -*.

---

* - اظر الكتاب : تاريخ الصحافة المصرية - للدكتور ابراهيم عبده وأدب المقالة الصحفية فى مصر - للدكتور عبد اللطيف حمزة .

المنفى.. طوكر.. الخرطوم

(٨)

لكن نكسة محمد على باشا.. بتحالف إنجلترا وتركيا وأوربا ضده وإجباره على الانكماش داخل حدود مصر - وراثية له ولأبنائه من بعده، وتقليل حجم الجيش المصرى ، و... انعكس ذلك على الطهطاوى.. على جهوده فى الألسن وجريدة الوقائع.. وتولى إبراهيم باشا الحكم لمرض ولده محمد على،

وسادت فترة من الخمول.. وتوفى إبراهيم.. فى ١٨٤٨/١١/١.

.. وتوفى محمد على باشا فى ١٨٤٩/٨/٢. وجاء عباس.. وقال:

« لا يصح أن تستمر دولتنا على النحو الذى سار فيه محمد على ومعاونوه.. لقد جروا على مصر النكسات.. وكراهيات دول عظمى.. »

وقرر عباس :

- « يتم تصفية المدارس وتحرق أو تغلق مدرسة الألسن.. »

ثار الطهطاوى. هرول إلى القلعة قال لعباس :

هذا قرار يعيد البلاد إلى عصر الجمود والتخلف والظلم.. »

غضب منه عباس . أمر بنفيه إلى السودان

وقال ساخرا :

- « شيخ رفاعه تريد تعليم.. اذهب إلى طوكر بالسودان.. عينتك ناظر مدرسة ابتدائية هناك.. علم الناس خرافات وهلوسات عن حرية.. وثقافات.. وحضارات.. ولن تعود من هناك ما دمت انا احكم.

ودع رفاعه.. زوجته كريمة وابنه.. وخاله.. وأم كريمة.. وقاوم دموعه.. وفى طريقه إلى المركب يحمل أحزانه وجثة أحلامه.. قال له أحد زملائه بالأزهر :

- « هى وشاية من الأمراء والأعيان لأنهم خافوا من تنويرك لعقول عامة الناس وتعليم المصريين ، وغضبوا من إلغائك اللغة التركية.. ودعوتك للدستور والحرية.. وهم يريدون امة من العبيد.. »

وقال آخر : « بل هى وقيعة من الشيخ على مبارك.. العائد من أوربا حديثا ويريد مناصبك يا رفاعه .

قال رفاعه : لا.. لا ولن أصدق هذا.. على مبارك أخى الأصغر.. وتلميذى ورفيق العلم وشريكى فى وضع لائحة التعليم الحديث.. و.. لا..

قال ثالث : بل أرى ان عباس غاضب عليك لكتابك تخليص الابريز.. وحديثك عن الحرية وحكم الرعية بالعدل والانصاف.. وهى أمور لا يحبها عباس باشا.. خصوصا قولك أنه لابد من وجود نواب للأمة يحامون عن الرعية ويحاسبون الحاكم بكل حرية..

قال رفاعه : هذا جائز لكن الشىء المخيف ان عباس.. يعيد الظلام للبلاد من جديد.. فيا ضيعة مشاريع الاستنارة.. والنهوض بالأمة المصرية.

❊ ❊ ❊

وفى الخرطوم ، ينشئ الطهطاوى أول مدرسة ابتدائية لتعليم الصبية والناشئين.. ويسجل خواطره :

- « .. تقلدت بعناية الحكومة المصرية.. وظيفة التلاميذ مدة مديدة، وسنين عديدة ، توليت نظارات عديدة ، وتعليماً وتعديلاً وتقويماً وترتيباً وتنظيماً.. وتخرج من نظارات تعليمى من المتفننين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال.. وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال.. عربت لتعليمهم من الفرنساوية المعارف الجمة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة فى العلوم ذات المنافع.. وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها - « وفى مدة نحو الثلاثين سنة لم يحصل لهمتى فتور ولا قصور و....

يتذكر رفاعه فترة نفية إلى السودان فيقول :

« وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر - وبقرار من عباس.. إلى بلاد السودان ، وليس مما قضاه الله مفر أقمت برهة خامد الهمة جامد القريحة ، فى هذه الملمة حتى كاد أن يتلفنى سعير الاقليم المغاير بحره وسمومه.. »

وثقل النفى وتأجيل مهمتى فى ترقية المصريين وتعليم الأمة فما تسليت هنا إلا بتعريب « تليماك » وتقريب الرجا بدور الأفلاك.. » *

❀ ❀ ❀

(٩)

العودة.. وبقية الأحلام

ومع تولى « سعيد » عرش مصر ١٢٧٠/١/٢٠- يوليو ١٨٥٤ عاد رفاعه الطهطاوى إلى مصر.. وعين وكيلا لسليمان باشا الفرنساوى ناظر المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥ .. ثم رقى .. مديرا لها.. برتبة

*- انظر مقدمة الطهطاوى لكتاب « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك »

«متمايز» - لواء - قال له سعيد باشا : « شيخ رفاعه . أريد أن نستفيد من أفكارك العلمية العظيمة فى تطوير المدرسة الحربية.. لتعود العسكرية المصرية قوية..

وأدخل الطهطاوى دراسة المحاسبة.. ليتعلمها ضباط المدرسة الحربية.. ثم أنشأ قلما للترجمة .

وجمع الطهطاوى إلى جانب نظارته للمدرسة الحربية نظارة مدرسة الهندسة والعمارة ، وتفتيش مصلحة العمارة..

لكن.. هذا الحال لم يستمر طويلا.. اذ ألغيت المدرسة الحربية سنة ١٨٦١.. فعاد الطهطاوى بلا عمل..

ذهب على باشا مبارك لزيارة الطهطاوى.. قال له :

- « إن أنجح أعمالك فى عهد سعيد باشا.. فى رأيى.. إصدارك الأمر بطبع جملة كتب عربية عم الانتفاع بها فى الأزهر وبقية المدارس الآخرى، ومنها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب، والمقامات الحريرية وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود إلى أن امرت أنت يا طهطاوى بطبعها.. وهكذا بادرت إلى احياء تراثنا.. فأضفت فضلا إلى أفضالك لتنوير الأمة.. »

قال رفاعه : « لا فضل لنا.. إلا أن نظل عاملين على نشر العلم والتعليم يا على مبارك.. فهل تذهب معى إلى الريف نبحث فى الكتاتيب عمن يصلحون للمدارس وللأزهر »

قال على مبارك :

- ولكن صحتك لم تعد تحتمل مشاق السفر وعناء الترحال على الركايب..

قال رفاعه :

- لا عليك.. نسافر من فورنا.. ففى ريف مصر كنوز من الصبية والشبان الذين لو امتدت إليهم بذور التعليم الحديث ، لأصبحوا مشاعل تنير الدنيا بأسرها.. نسافر غدا بمشيئة الله..

❃ ❃ ❃

(١٠)

كان عصر اسماعيل باشا ، المعجب بالثقافة الفرنسية ، وبالحياة الباريسية خاصة والأوربية عامة ، فرصة مناسبة للطهطاوى ليحقق ما تبقى من أحلامه.. شارك فى التخطيط لنظام التعليم.. فكان عضوا فى « قومسيون المدارس » وهو - يومها - أعلى سلطة فى التعليم بمصر..

وساهم أيضا فى تعليم اللغة العربية بالمدارس.. وقام باختيار المدرسين بنفسه ووضع تخطيط ومشاريع ولوائح المناهج الدراسية.

وحدد الأسلوب المناسب لتدريس قواعد النحو والصرف للغة العربية، كما وضع بنفسه طريقة تدريس مبادئ الحساب والرياضيات ومبادىء العلوم والصحة والانشاء والتعبير للكشف عن الموهوبين فى التأليف والإبداع.. ووضع منظومته : « جمال الأجرومية فى النحو» .. سنة ١٨٦٣ ، وألف كتابه » التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » سنة

١٨٦٩ .. وفيه نجد لأول مرة فى تاريخ الكتب العربية ، كتابا فى النحو يشتمل على الجداول الايضاحية بالاسلوب العلمى المبسط ، لتيسير القواعد وتوضيحها ، بدلاً مما كان شائعاً من قبل بملء كتب اللغة بالمتون والمنظومات والتقريرات• ثقيلة الفهم وصعبة الحفظ على التلاميذ. فقدم الطهطاوى بذلك الكتاب فى الأجرومية وقواعد اللغة العربية خدمة جليلة كان لها تأثيرها الممتد لأجيال كثيرة..

❋ ❋ ❋

والف رفاعه الطهطاوى درته الشهيرة « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الأداب العصرية » سنة ١٨٧٠. وشرح فيه الكثير من المختارات الأدبية العربية والآداب والثقافات الحديثة الأوربية.. وقال :

- « إنه كتاب لا يهدف إلى التسلية الأدبية ، بل هو يهدف إلى التوعية السياسية »

❋ ❋ ❋

.. ثم أتم تأليف كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» ١٨٧٢. وفيه - لأول مـرة فـى مصـر ، يتحدث عـن تعليم البنات والبنين معـاً.. « فالتعليم هو الوسيلة العظمى التى يكتسب بها الانسان معرفة ما يجهله بالكلية أو ما بقى له من تكميل علمه ببعض أشياء جزئية.. التربية : تسبق التعليم وهى قسم لتربية النوع البشرى وترقية الإنسان بتنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية ، وقسم آخر لتربية أفراد الانسان ويعنى تربية الأمم والملل..

وقسم ثالث : فى التربية العمومية لكل انسان فى خاصة نفسه ، وفى الجملة فإن التربية المعنوية تتناول تنمية القدرات ، والتربية الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، ثم التربية العمومية وهى التعليم.. أو «التعليمات العمومية» وتبدأ بمرحلة التعليم الابتدائى ، فالثانوى او التجهيزى ، فالعالية . وهذه « التعليمات العمومية » هى ما يتعلمه الذكور والإناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر جميع المعارف التى يجتمع فيها للتعليم.. عدد مخصوص من المتعلمين ، وعدد من المدرسين على أن يكون التعليم فيه لأهل مصر على السواء فهو عام لجميع الناس ... والانتفاع به.. لابناء الأغنياء والفقراء ذكورهم واناثهم دون تميز.. فالتعليم الأولى لا يقتصر على جنس بعينه أو طبقة بعينها.. بل هو الاساس العام لكل مراحل التعليم والتدريب التالية لارباب الحرف والكارات والحرف الصناعية.. فإن الصانع إذا تعلم سهل عليه بقراءة كتب صنعته أن يشتغل أشغالا جيدة بالمراجعة ، وأن يخرج من ورطة السماع من فم أستاذه ، وسهل أيضا أن يكمل صنعته التى تعلمها من استاذه..

على أن يكون التعليم الأولى خاصا بتعليم الدارسين القراءة والكتابة والقرآن الشريف وأصول الحساب والنحو والهندسة.. وهذه المعارف الأساسية ضرورية لكل أبناء الأمة.. »

(١١)
موقعة.. أول مدرسة للبنات

وبعد انفضاض احتفالات الخديوى إسماعيل بافتتاح القناة.. تفرغ لسفهه ومجونه وقوبل باتهامات أنه يشجع الطهطاوى على تعليم النساء وتحررهن.. فاستدعى رفاعه الطهطاوى..

سأله فى تهكم :

- هل تريد حقا فتح المدارس لتعليم البنات مع الصبيان ؟..

قال الطهطاوى : هو حلم أدعو الله أن يتحقق على أيديكم جناب الخديوى ؟..

سخر الخديوى اسماعيل غاضبا :

- أنا أعلم بنات مصريات ؟.. أليس هذا حرام.. ومخالف للدين.. ويسبب ثورة من مشايخ الأزهر.. ومن كبار وأعيان..

قال الطهطاوى :

- بل انه من اساسيات التربية السليمة أن تهتم الدولة بترقية حال النساء وتعلمهن لأن الجهل هو السبب فى وقوع اللخبطة بالنسبة لفقه النساء.. واللخبطة لفقه النساء لا تأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة.. وتعليم المرأة أمر نصحنا به الرسول عندما قال لأحد المسلمين.. راح يسأله أنه يريد الزواج وليس معه مهرا يمهر عروسه به فقال الرسول : علمها شيئا من القرآن »

قال الخديوي إسماعيل :

- هذا كلام يسبب قلقا شديدا لنا.. وأنا أعرف ان أوربا تهتم بتعليم البنات والنساء.. لكن هنا فى مصر.. حال مختلف فى المعتقدات والأخلاق والسلوك يا رفاعه بك.. والتعليم للمرأة سيجلب لها التحرر.. والخروج للعمل.. وتقوم ثورات فى البلد.. لا.. لا.. تعليم بنات ونساء.. يوك.. مرفوض رفاعه بك.. »

❊ ❊ ❊

لكن « إيجفت هانم ».. احدى زوجات الخديوى اسماعيل قرأت كلام الطهطاوى ، فى عدد من مجلة روضة المدارس - التى يرأس تحريرها.. ويساعده فى تحريرها ابنه « على فهمى» وأبنه « بدوى »..

طلبت حضوره للقائها.. ناقشته فى أفكاره الجديدة لتعليم البنات وتحرير المرأة من الجهل والعبودية وإعطائها حق العمل.. قالت :

- كلام جميل.. جرىء أنت يا شيخ طهطاوى..

قال : الفلاحة تعمل وتبيع وتشترى فلما لا تتعلم ؟!..

- « غرضى ترقية المجتمع والأمة ، وتعليم المرأة يساعدها على النجاح فى حياتها الزوجية ، والقدرة على الكلام مع زوجها ، ويعلمها كيف تحسن تربية أولادها.. وتدبير أحوالها ، واذا حدث وترملت مثلا.. تستطيع أن تعمل عملا يناسب قدرتها الجسمية والعقلية والعاطفية..»

قالت : « إيجفت هانم » :

- هذا كلام عظيم.. وصح تمام.. أنا اتبنى أفكارك يا شيخ رفاعه.. سأبنى من أموالى اول مدرسة فى بر مصر لتعليم البنات.. سأقنع الخديوى بذلك.. اطمئن يا طهطاوى .

❋ ❋ ❋

(١٢)

كاد رفاعه يطير فرحاً وغبطة.. هرول عائدا إلى كريمة.. ليبشرها بالنبأ العظيم.. لكنه وجد نفسه - يرتمى على فراشه منهكا.. ومريضا..

حاول أن يغالب الألام ، ليراجع فصول كتابه : تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام...

« وكتاب.. غاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » .. فى سيرة النبى صلى الله وسلم وقيام الدولة الاسلامية وفتوحاتها وحضارتها العظيمة التى غزت العالم.. لكن المرض اشتد عليه. وهزل جسده ، و..

سأله ابنه « على فهمى » :

- افتتاحية العدد الجديدة من مجلة روضة المدارس..

« يا أبى.. أرجو أن تمليها لأكتبها.. »

أخذ يملى ابنه.. قال : العنوان.. « فى الوطنية المصرية »..

قال ابنه : سيغضب الخديوى من تأجيجك حمية المصريين وترسيخ الانتماء الوطنى فى وجدان أبناء الأمة.. »

قال الطهطاوي :

– المهم هو أن يعرف عامة الناس أن « الوطن هو عش الانسان.. وان مصر هى العش وهى الوطن.. ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف.. ان لم نقل انها أشرف الأمكنة وأمجدها ، فى القديم والحديث ، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وأثار وحديث.. كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة.. »

« ومصر : بلد..كم خرج منه كبار ملوك وسلاطين ، وحكماء وأساطين.. وكم نبعت من مصر فنون وعلوم ، وانجلى بها وبهم من البلاد سحائب وغيوم.. »

« ومصر موصوفة عند الجميع بالشجاعة ، والحماسة والكياسة والرئاسة ، فضلا عن الذكاء والفطنة ، فلها الحق فى أن يحترمها جميع الأمم والملل ، وملوك الدنيا والدول.. فكم اقتبسوا منها فى الأزمان الخالية أنوار المعارف والعلوم التى طوقت أجياد الدنيا كلها.. ومصر هذه.. تناديكم.. ان انهضوا بها.. فالوطنى المخلص فى حب الوطن يخدمه ببذل جميع ما يملك.. فإذا لم يوف أحد أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه التى يستحقها على وطنه.. ».. وسقط الطهطاوى مريضا..

❊ ❊ ❊

(١٣)

أرسلت إيجفت هانم » زوجة الخديوى اسماعيل رسالة تدعوه لحضور افتتاح أول مدرسة للبنات.. تحامل على نفسه.. ارتدى ثيابه بصعوبة.. ساعدته زوجته كريمة.. بوهن لضعفها بالشيخوخة والمرض..

قالت :

- « انت متعب يا شيخنا.. ارسل ولدنا على فهمى أو بدوى.. أو فتحى.. »

قال بصوت يخنقه المرض.. والشيخوخة :

- هم معى.. أنا أذهب مستندا عليهم.. اطمئنى يا كريمة.. أريد أن أرى وجه مصر الآن.. فى عيون بنيها وبناتها فى المدارس.. »

.. خرج رفاعه الطهطاوى مع أولاده ، ركبوا عربته التى تجرها الخيـول.. آلمـه اهتزازهـا.. ضحك وهـو يتذكر شوارع باريس المرصوفة قـال :

- ما أكثر ما تبقى من أمانى.. وأحلام مؤجلة !..

قال ولده :

- ستعيش ان شاء الله لترى تحقيق أغلى الأمانى يا شيخنا.. وأبى الجليل..

ابتسم له.. قال :

- بارك الله فيكم وفى بنى مصر جميعا..

.. توقفت العربة أمام مدرسة السنية للبنات ، هبط رفاعه.. تساند على أولاده.. لكنه ما ان رأى وجوه التلميذات الصغيرات.. وهن يقفن فى دائرة حول سارية عالية يرفرف فوقها علم مصر الأخضر بهلاله ونجومه.. حتى انفرد جسده.. وارتفعت رأسه وشمخت نظراته ، وسرت

الحيوية فى عروقه.. وعلا صوته ، وهو يردد مع التلميذات الصغيرات نشيده الذى كتبه لهذا اليوم العجيب المجيد :

وكنانة الله التى كم فوقت ∴ منها وإن بعد العدو سهام

وقديمة شاب الزمان ، وحسنها ∴ باق ، ولم تهرم لها الأهرام

وإذا سطا حر الهجير فماؤها ∴ وهو اؤهاء برد بهاو سلام

وغنية بالنيل عن نيل الحيا ∴ وله أياد فى الوجود جسام

يا مصر.. باسطة الجناح كأنها ∴ تطعم الدنيا بالخيرات مدى الأيام

فانهضوا ابناء مصر.. وبناتها ∴ للعلا.. وافرضوا على الدهر كل مرام

ترقرقت دموع الطهطاوى.. وألقى كلمة قصيرة فى حفل الافتتاح ، وبجواره وقفت « جسم افت هانم » زوجة الخديوى.. وغير بعيد منها كانت صافيناز هانم مع زوجها غماش البنهاوى.. وقد سرى المشيب فى الوجوه لكنه لم يخف جمالها.. نظر إليها الطهطاوى.. وابتسم فى مودة.. عاد ينظر إلى التلميذات الصغيرات.. قال لهن :

- « .. ينبغى ان تعرفوا منذ الآن أن نية أبناء الوطن دائما متوجة فى حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، وعليكم أن تتعلموا.. وألا ترتكبوا شيئا مما يخل بحقوق أوطانكم واخوانكم ، ليكون ميلكم دائما إلى النفع والصلاح.. فحب الأوطان وجلب المنافع العامة للأخوان من الصفات الجميلة التى تجعل كل انسان منكم محبوبا للآخرين ، فما أسعد الانسان الذى يميل بطبعه لإبعاد الشر عن وطنه ولو باضرار نفسه.. ويا بناتى الغاليات : انتن أمل البلاد فى تنشئة جيل من المتعلمات..

فاعملن بجد واجتهاد.. واعلمن ان الله يبارك عمل كل انسان يغالب الجهل ، ويقاوم الشر ، ويحصن نفسه وبلاده بنور الإيمان وفضيلة التعليم..

❊ ❊ ❊

(١٤)

يوم.. للوداع

ركب الطهطاوى « الحنطور » مع أولاده.. ذهبوا به إلى الأزهر.. دخل إلى رواقه القديم.. ذهب إلى مجلس علمه الأول : نظر فى وجوه الطلاب الشبان.. جلس يلقى عليهم درسا قصيرا.. قال :

- « ومن أسباب التمدن فى الدنيا : التمسك بالشرع ، وممارسة العلوم والمعارف.. وترقية الفلاحة والتجارة والصناعة.. واستكشاف البلاد التى تعين على ذلك ، واختراع الألات والأدوات.. فاعملوا على أن تطوروا دراسات الأزهر ذات يوم قريب ، لتشمل علوم الدنيا إلى جوار علوم الدين.. »

و.. توقف يتأمل الوجوه النهمة إلى التعلم والمعرفة .، تذكر من بينها وجه « محمد عبده » الصبى الفتى الذى اكتشف تدينه وطموحه وتفتحه فى أحد كتاتيب البحيرة ذات يوم من سنوات.. ابتسم له.. وقام..وانصرف..

❊ ❊ ❊

قال لأولاده.. خذونى إلى المدرسة الحربية. فأخذوه إليها.. رحب به مديرها.. قال :

- أهلا بمديرنا الأسبق.. إننا على نهجكم العلمى العظيم نواصل المسير..

قال رفاعه : خذنى إلى ضباطك الشبان بالمدرسة.. انهم قادة جدد.. أود أن أراهم..

و.. التقى بهم.. وأخذ يتأملهم.. تذكر من بينهم :

« احمد عرابى ».. و « محمود سامى البارودى ».. و « عبد العال حلمى ».. وعلى فهمى.. و.. و..

وجوه صارمة.. عيون ذكية ، نظرات تطمح إلى غد يحمل وعدا بتغيرات غامضة..

لكنها تستهدى الإيمان القوى ، والعلوم الحديثة.. قال لهم :

- أذكر بعضكم جيدا.. منذ رأيتكم صبية وفتيانا فى كتاتيب الريف وعلمتكم بفضل الله.. كل ما أعرفه من علوم وفقه.. طوال سنوات وأعاننى الله على التعب والمشقة..

وترجمت لكم وشرحت ما درسته فى باريس..

وها أنتم جند مصر.. وسرها المكنون.. فاحفظوها يحفظكم الله..

وأحبوها يحببكم الله.. وتذكروا أن من أسباب التمدن، ان تكونوا قوة قوية متحدة وطليعة الأمة ، ودرعها وحماة عرضها وحريتها ، وإيجاد الوسائل اللازمة لاستقرار العدل والحق ورفع المظالم عن كاهل أبائكم ، و..... .....

وفى طريقة إلى داره.. توقفوا به عند مدرسة الألسن.. فألقى عليها نظرة طويلة.. وقال :

- « كم زرعت هنا من أفكار كثيرة.. وحلمت بشموس وأقمار وجبال للنار وبراكين تزلزل الجهل وتمحق الباطل وتهزم الظلام لتنير شموس الفكر الجديد حياة مصر المحروسة وتعيد لها سيرة مجدها التليد فى الدنيا المعمورة.. إيه يا مدرسة الألسن.. يا مهد العلوم الحديثة والضياء.. رعاك الله.. وجعل من حولك دورا كثيرة للعلوم والمعارف..

❄ ❄ ❄

(١٦)

المعلم الأول.. الأب الروحى

قال رفاعه : خذونى إلى نيل مصر المحروسة.. نتمشى على شطه قليلا.. ثم استدار بوجهه إلى ابنه.. ومرافقيه.. صمت فترة.. و« الحنطور » يسير بهم الهوينى.. على شط النيل ومن حوله تظهر الاهرامات ومآذن الأزهر والقلعة.. عاد ينظر إلى مياه النيل..

تابع أمواجه الهادئة السمراء بالطمى.. وحوله الأشجار والنخيل..

وفوقها تتأرجح مركب شراعى.. متجه للصعيد.. ربما تمر على طهطا..
قال فى نفسه : بلغو السلام والأشواق للأهل والأحباب.. وديار المهد..

ورأى مركبا شراعيا تتجه مع الأمواج نحو الوجه البحرى.. فانزاحت أمام بصيرته ذكريات مشاوير كثيرة مع شيخه العطار.. أو مع تلميذه وزميله على مبارك إلى القرى والكفور والنجوع. إلى الاسكندرية.. حيث فرح بنبوع تلميذ صغير اسمه قاسم أمين..وتلميذ آخر هو البحر درويش والد سيد درويش وثالث هو النديم والد عبد الله النديم.. وفى دمنهور.. حيث اكتشف تلميذه محمد عبده وإلى ميت الخولى عبد الله حيث اكتشف والد زكى نجيب محمود..وبرمبال القديمة.. حيث بيت وأهل على مبارك.. وأكلوا الثريد واللحم وركبوا مركبا صغيرة عبروا « البحر الصغير ».. وركبوا الحمير والخيول وعربات خشبية.. وتجولوا فى قرى كثيرة.. كثيرة..

وصلوا السنبلاوين حيث اكتشف والد لطفى السيد وأدخله الكتاب.. وإلى « طماى الزهابرة » حيث اكتشف الشيخ ابراهيم والد أم كلثوم.. وأنشأ رفاعه. فى بعض القرى مدارس صغيرة من فصل واحد.. واتفقوا مع أحسن فقيه فى القرية ليكون « عريف » المدرسة.. وضحكوا وقالوا نسميها « كتاب » حتى لا يغضب الوالى.. حتى لا يغضب أعوان الباشا..

قالوا : مدارس يوك.. ما فى مدارس.. تعليم المصريين الهمل.. يكون عكاس على الدولة..

مصريون يثورون.. يتملعنون.. يتنمردون.. يطلبون المناصب والعز والجاه.. فماذا نفعل نحن الخديو.. وحضرات بكوات.. نهرب من مصريين ونترك بلاد وخيرات..

يوك.. لا.. مافى. تعليم.. لكن.. موافقون على كتاتيب.. كتاتيب صغيرة لتعليم القرآن وبعض الكلام والحساب .. فقط..

وهاجمت رفاعه ذكريات مؤلمة.. كرابيج المماليك والأتراك وثورة أهالى طهطا.. وسعل رفاعه.. وأحس بوطأة السن... وشدة المرض..

وشم رائحة الزرع..و تراب شط النيل.. وتذكر تراب الغيطان والقرى وأمطارها.. وهو يبحث فى ربوع ديار مصر المحروسة عن تلاميذ نجباء.. عرابى.. أحضره من الشرقية إلى مدرسة الحربية فى القاهرة المحروسة.. وأحضر البارودى من أين ؟.. من أين ؟.. وجده فى أحد كتاتيب القاهرة.. أحضر قاسم أمين من الاسكندرية.. جاهد كثيرا حتى أقنع الخديوى بفتح مدرسة فى القلعة لتعليم النابهين من أهل مصر.. أخذ يعلمهم بنفسه.. وأختار لهم مدرسين من خيرة فقهاء الأزهر.. وبعض زملائه أعضاء البعثة.. وبعض الأجانب.. وتذكر رفاعه يوم سافر بالمركب والجمال إلى الصعيد.. حيث اكتشف والد طه حسين فى قرية «الكيلو» فى المنيا.. وفى أسوان اكتشف والد عباس محمود العقاد.. وتلاميذ آخرين فى نجوع الصعيد فتح لهم كتاتيب..

وفى الأزهر.. جمع بعضهم فى حلقات الدرس.. ولفت اهتمامه الشيخ محمد عبده.. فقال له : « أحضرتك من دمنهور.. لتتعلم بالأزهر وتكون بإذن الله أحد وجهاء هذه الأمة بعملك ومعارفك فننفع البلاد

والعباد.. فانشط ولا تهمل.. فأنا أراك تذكرنى بشبابى الذى ولى.. ومضى.. و تعلقت عينا رفاعه بمآذن الأزهر.. والقلعة.. والنيل.. والأهرامات.. ووجوه الناس على شط النيل.. و..

سأل ابنه : ترى هل يتذكرون ؟.. هه.. انهم سوف ينسون ؟!..

قال ابنه : بفضل الله لا تنساك البلاد والعباد.. ولكن مد الله فى عمرك يا أبى.. انك ملء السمع والبصر على الدوام بفضل الله.. فكيف ينسون فضلك على الأمة..

قال رفاعه : ينسون رفاعه.. وما فعله.. لا أحزن يا ولدى.. فما عملت ليحفظوا اسمى وذكرى.. لكن إذا أهملوا حق مصر المحروسة.. ونسوا حق البلاد والعباد.. فى علم بنيها ومعارفهم.. ودمائهم وعقولهم.. فهذا هو الجحود.. وهذا هو ما أحزن إذا خطر ببالى..

قال ابنه : بإذن الله سيعى تلاميذك وكل من يتعلم من فكرك وكتبك وجهادك.. سيعى هدفك الوحيد وهو ترقية أحوال مصر المحروسة.. واخراجها من ظلمات التخلف والجهل.. وجعلها بإذن الله منارة الحضارة للدنيا.. كما كانت أيام الأجداد الأول.. و..

سرح رفاعه.. حدق فى الأفق.. فوق النيل.. واحتضن بيوت القاهرة وأشجارها وأطيارها وهواءها ونسيمها وأمواج النيل وغناء صياد يعزف على ناى حزين..

موكب العظماء

(وفى ومضة للمستقبل - فلاش للمستقبل بلغة السينما - تظهر وجوه عظماء مصر الحديثة حول وجه رفاعه فى هذا المشهد.. وحتى النهاية ..)

لم يعرف رفاعه لحظتها - أن الله قد أراد تهيئة عشرات من المفكرين والمؤرخين والأدباء - جيلا بعد جيل.. لكى يؤلفوا كتبا عظيمة عن رفاعه وجهاده الوطنى العظيم.. لم يكن رفاعه يعلم أنه سيأتى عشرات المفكرين المصريين.. ويؤلفون كتبا عن الطهطاوى وتاريخ الفكر الحديث وبناء مصر الحديثة.. ويتحدثون عن ملاحم جهاد الطهطاوى.. فى كلمات وسطور.. أرادها الله أن تكون من نور الحقيقة التى وهبها الله لمصر على يدى رفاعه الذى يتهادى به الحنطور على شط النيل وعيناه إلى السماء يحمد الله كثيرا.. و...

« .. فرفاعه الطهطاوى هو -*- : أبو الفكر المصرى الحديث.. ومؤسس نهضة مصر الثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى.. أرسى الأساس العظيم الذى بنى عليه الفكر المصرى الحديث فى كل مجالات

---

* - انظر كتاب : تاريخ الفكر الحديث - د. لويس عوض

الثقافة والفكر السياسى والاجتماعى.. فى التربية.. والتعليم.. وفى علوم الدين والدنيا.. فلا عجب أن خرج من عباءة هذا الشيخ العظيم أعلام الفكر التقدمى فى مصر الحديثة.. من الشيخ محمد عبده. وقاسم أمين.. وعثمان جـلال.. إلـى لطفى السيد.. وطه حسين.. وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق.. و.. إلى محمود عزمى.. والعقاد.. ومحمد مندور.. ومن محمود سامى البارودى إلى أمير الشعراء أحمد شوقى وحافظ ابراهيم وعزيز أباظة.. إلى .. غيرهم من النوابغ فى كل مجال.. جيلا وراء جيل.. فى مصر وكل البلاد العربية..

« ولا عجب ان كانت ثورة ١٨٨٢ - وثورة ١٩١٩ - وثورة ١٩٥٢.. مدينة لفكر وجهاد رفاعه الطهطاوى. بالشىء الكثير.. فهو المعلم لأحمد عرابى وزملائه.. وهـو الأب الـروحى لمصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد.. وجمال عبد الناصر.. لأن الطهطاوى هو الذى بذر بذور الفكرة الراديكالية.. والفكرة « الليبرالية ، والفكرة الاشتراكية المعتدلة » وبالجملة فإن رفاعه الطهطاوى هو أول من بذر فكرة « الديمقراطية » فى ثرى مصر.. وفكرها.. وأول من علم المصريين مبدأ الحرية التى قدسها القرآن والدين الإسلامى - وكل الأديان.. وكل القوانين الوضعية - وهى ان « السيادة بالكلية للرعية.. وعلى الحاكم أن يخضع لاختيار الرعية.. ومساءلة نواب الأمة.. فى كتابه تلخيص الابريز فى تلخيص باريز - أول كتاب أصدره فى شبابه عام ١٨٣٤. وفى آخر كتاب له فى أواخر حياته - وهو : « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الأداب العصرية » سنة ١٨٦٩..

« .. والطهطاوى » هو الذى ثبت فكرة « القومية المصرية ».. فى زمن كانت فيه « المصرية » - مجرد رداء من أردية العار.. يعير به السادة الترك والمماليك.. رعاياهم من المصريين بأنهم « فلاحين.. خرسيس أولاد فرطوس »

فجعل الطهطاوى « المصرية » عزة وكبرياء وشموخا وعلما.. وجعل « المصرية » هى الوطنية الحقيقية..

« .. والطهطاوى.. هو الذى وضع الأساس المكين لتحرير المرأة ، ودعا إلى تعليمها وحقها فى العمل.. وأنشأ بمساعدة زوجة الخديو اسماعيل أول مدرسة للبنات - فكانت مدرسة السنية الحالية بحى السيدة زينب - وذلك كله قبل قاسم أمين بخمسين عاما..

« تستمر ومضة المستقبل.. وموكب عظماء مصر.. حول وجه رفاعه »

« والطهطاوى هو الذى علم بنفسه - أباء كل رواد مصر.. والرواد العظام أنفسهم ففى طفولتهم لابد أخذوا العلم على يدى رفاعه.. أوفى مدرسة أنشأها بنفسه.. وبالرجوع إلى تواريخ ميلاد كل عظماء الفكر والسياسة والأدب والعلم والفنون فى مصر.. سوف تجد أنهم ولابد تعلموا على يدى رفاعه ومنهم : عرابى - البارودى - محمد عبده - قاسم أمين- عبد الله النديم - والد أم كلثوم - والد الموسيقار عبد الوهاب - والد سيد درويش... والد نجيب محفوظ.. الفنان مختار.. ولطفى السيد.. طه حسين - العقاد.. والد توفيق الحكيم.. وإلى نهاية الدنيا.. ستجد فى كل جيل جديد مصريين تعلموا من فكر الطهطاوى.. فى كتبه.. وجهاده..

والطهطاوى هو أول ناظر مصرى للمدرسة الحربية.. وأول صحفى وأول رئيس تحرير مصرى.. وأول عالم مصرى.. وأول أب روحى لجميع علماء مصر فى الزراعة والصناعة والطب والهندسة والطبيعة والكيمياء.. و.. هندسة المبانى و.. الخ....

فالطهطاوى هو الذى بشر فى أرض مصر بالحرية.. والمساواة.. والإخاء.. والعدل.. والديمقراطية.. والحياة النيابية.. ونظم الانتخابات لنواب الشعب.. ومحاسبة الحاكم وشجع التعليم والبحث العلمى فى كل المجالات بالتفصيل وبالجملة..

وفى كلمة.. «إن الطهطاوى هو الذى اقام الدولة الحديثة فى مصر..»

و (يستمر موكب وجوه عظماء مصر.. حول وجه رفاعه.. فى « ومضة المستقبل.. مع امتزاج فنى بين الواقع آنذاك.. إلى المستقبل وتتداخل الصور والمشاهد بين النيل والمراكب الشراعية والأهرامات والأزهر ومشاهد كثيرة أخرى من معالم مصر القديمة والحديثة.. »..

وعادت نظرات رفاعه من أفق السماء.. إلى قمم الأشجار والنخيل وصوارى المراكب.. إلى أمواج النيل.. محملة بالطمى والخصوبة إلى الفيضان.. و.. تعلقت عيناه بمآذن الأزهر.. والقلعة.. والأهرامات والنيل.. ووجوه الناس على شط النيل.. مع تداخل فنى بوجوه موكب عظماء مصر »

قال رفاعه : حفظ الله مصر المحروسة...

وبارك فى دين وعلم ومعارف بنيها الأوفياء فهم أمل البلاد.. بإذن الله..

قال ابنه : والحمد لله.. أفضالك كثيرة

قال رفاعه : « الفضل لله دائما يا ولدى.. وما نحن الا أسباب وقد حملنا الله هذه الأمانة.. فاللهم ارحمنى إن كنت قد أهملت أو قصرت.. »

.. وسالت دموع رفاعه..

قال ابنه : أبى .. هل نعود للبيت.. آن أن تستريح فجولتك اليوم كانت طويلة وشاقة.. و..

❃ ❃ ❃

(١٧)
رحيل رجل عظيم

عاد رفاعه إلى داره مجهدا متعبا فى غروب يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٧٣.. كان شاحب الوجه.. ممصوص الجسد.. منهوك القوى..

يستند على ابنائه.. وجلس إلى منضدته.. رفض أن يرقد..

« تستمر ومضة للمستقبل.. وتظهر وجوه عظماء مصر من العلماء والأدباء والفنانين والجيوش والمعارك والانتصارات.. موكب العظماء المصريين مستمر حول وجه رفاعه.. حتى النهاية »..

أخذ رفاعه ريشته بيد مرتعشة..

.. وكتب.. يقول بصوته العميق.. الواضح رغم ارتعاش نبراته ورغم الارهاق.. والشيخوخة.. قال :

- وحيث كان العمل بالنية، والمدار على حسن الطوية.. فقد قدمت كل حياتى وجهادى لترقية البلاد.. إن عمرى لقصير..

ولكن عمرى سيمتد من خلال أعمالكم العظيمة على الدوام..

و.. اناشدكم.. أرجوكم : « اعملوا دائما بشرف فى تحصيل العلوم

كلها.. وفى أداء أعمالكم بإتقان.. من أجل أن تكون مصر وطن السعادة للجميع.. » و.. تذكروا :

ليس الفتى، بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض أثار.

نظر رفاعه حوله لحظات.. يجاهد آلامه.. وأطال النظر كثيرا إلى مآذن الأزهر والقلعة والأهرامات.. وكانت تظهر له من نوافذ غرفته..

وقال رفاعه : « فتية لم تلد سواها المعالى » « والمعالى قليلة الأولاد!..

و.. اقتربت لحظة الرحيل من ليلة ٢٧ - ٥ - ١٨٧٣ - ١٢٨٨.هـ.

و.. قال الطهطاوى - فى الرمق الأخير :

- « حفظ الله الوطن.. وحفظكم جميعا.. »

و.. سقطت ريشة الطهطاوى على أوراقه..

وعزف الناى .. لحن رحيل الأحباب .. ولوعة الحزن.. وسالت دموع الناس .. وفاض النيل.. وسقطت أمطار وزاد أنين السواقى.. وهتف اليمام فى الوادى: « وحدوا ربكم ».. وحلقت الطيور.. مع الناس فى وداع الرجل...

❄ ❄ ❄ ❄ ❄

الفهرس

١٦٢٥

I . S . B . N 977 - 215- 059 - x

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩